الوصايا العشر الكرام

(من سورة الأنعام)

تأليف

الدكتور عمر بن عبد العزيز

الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

الوصايا العشر الكرام

من سورة الأنعام

من تفسير الإبريز، فى بيان الكتاب العزيز

لأبى حفص / عمر بن عبد العزيز

فعلى بركة الله تعالى نبدأ، فنتبارك بالقرآن العظيم:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾.

من سورة الأنعام

* * *

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وآل بيته كما صليت ربنا على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد..

فهذه مجموعة خواطر وتأملات حول الوصايا العشر فى سورة الأنعام، على طريقة التفسير الموضوعى، والتى هى باكورة هذا التفسير الذى يحلو لى أن أسميه «تفسير الإبريز فى بيان الكتاب العزيز» وفى خواطرنا هذه حول الوصايا

مـهدنا لهـا بنظرة حـول السورة التى وردت فـيهـا، واسم الوصايا وشـموليتـها، ومناسبـة الآيات لما قبلهـا، مع بيان مقـدمة الوصـايا، ثم شرح الوصـايا العشر، الـواحدة تلو الأخرى بطريقة موضـوعية، توخيت فيها الاخـتصار وعدم الإطناب، مع اعـترافى بالعـجز والتـقصيـر، لأنه لو ترك المجـال للقلم أن يكتب، لكتب فى كل وصـية مـجلدات، ومجلدات، ولم لا؟ وهو كـلام الله العزيز، وقـد قال ربنا سبـحانه وتعـالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ولكنى سأحاول ـ قدر الإمكان ـ الإيجـاز فيما سنعرض من مـوضوعات، مـحيـلاً القارىء ـ إن شـاء المزيد ـ إلى المراجع المتخصـصة، وكتب التفسيـر المتعددة، ولكنى ـ إن شاء الـله تعالى ـ سـأجمع له زبدة مـا فى هذه التفـاسيـر والكتب، ليخرج بثمرة مـرجوة، وفائدة واضحة، مع رجاء

---

(١) سورة لقمان: [٢٧].

القبول والتوفيق من الله عـز وجل، ثم النصيحة من قرائى الكرام، وألا ينسونا بدعوة صالحـة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز قريشي

الأستاذ بجامعة الأزهر

فى بنجلاديش صفر / ربيع الأول ١٤٢٢ هـ



نظرات وتأملات حول سورة الأنعام وآياتها المباركات

* سورة الأنعام واحدة من السور المكية، هى أولى السور المكية ترتيبًا فى المصحف، وآياتها ١٦٥ خمس وستون ومائة آية، نزلت بعد سورة الحجر.

وهى - على الراجح - نزلت جملة واحدة، للحديث الذى رواه الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«نزلت علىَّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيعها سبعون ألفًا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد»**[١].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: **«سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»**[٢].

---

(١) رواه الطبرانى بسند صحيح.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط (٦ / ٦٤٤٧) والبيهقى فى الشعب (٢٠ / ٢٤٣٣) ورواه أبو بكر الإسماعيلى فى معجمه وابن مردويه فى تفسيره والحديث شواهد تدل على صحته، ذكرها ابن كثير (٦ / ٦-٧).

وقـال ابن عبـاس ـ رضى الله عنهـما ـ أيضًـا: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليـلاً جملة واحدة، حولها سـبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح».

* لماذا سـميت بسـورة الأنعام؟ سمـيت بسورة الأنـعام لورود ذكـر الأنعام فيـها فى أكـثر من آية كـقوله تعـالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ

(١) سورة الأنعام: [١٣٦].

يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا... ﴾[2].

ولأن أكثر أحكامها موضحة لجهالات المشركين في تقربهم بالأنعام إلى الأصنام ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾... الآيات[3].

* موضوعات السورة: سورة الأنعام باعتبارها واحدة

---

(١) سورة الأنعام: [١٤٢ - ١٤٦].
(٢) سورة الأنعام: [١٣٩].
(٣) سورة الأنعام: [١٣٦ - ١٤٦].

من السور المكيـة . . فهى كطبـيعة السـور المكية اذن، يدور محـورها حول تصـحيح العقـيدة، وبيـان أصول الإيمان، خاصة الإيمان بالله تعالى، وبالأنبـياء وبالبعث بعد الموت، فنجد الحديث فى هذه السورة مستـفيضًا حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها فى ذلك الحجة الدامغـة، والدلائل الباهرة، والـبراهين السـاطـعة، والأدلة القاطعة فى طريق الإلزام والإقناع.

ومما يلفت النـظر أن السـورة الكريمة عـرضت لأسلوبين بارزين، لا تكاد تجدهمـا بهذه الكثرة فى غيـرها من السور وهما: (١) أسلوب التقرير. (٢) أسلوب التلقين.

فأما أسلوب التـقرير: فإن القرآن يعـرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته وسلطانه وقهـره فى صـورة الشأن المسَّلم به، ويضع لذلك ضـميـر الغائب عن الحس الحـاضر فى القلب، فيأتى بعـبارة «هو» الدالة على الخالق المدبر الحكيم، مـثل قوله تعالى: ﴿هُـوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ...﴾ ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي

الأَرْضِ...﴾ ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل...﴾ ﴿وهو القاهر فوق عباده...﴾ الخ.

وأما أسلوب التلقين: فإنه يظهر جليًا فى تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها فى وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها، ويأتى هذا الأسلوب عن طريق السؤال والجواب، يسألهم ثم يجيب، فى مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ...﴾ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ...﴾ ﴿... قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الخ.

* وهكذا تعرض السور الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحُجج الساطعة، والبراهين القاطعة التى تقصم ظهر الباطل، ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن فى تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها،

وتثبت دعـائمها، وتفند شـبه المعارضين لهـا بطريق التنويع العجيب فى المناظرة والمجادلة . . فهى تذكر توحيد الله جل وعلا فى الخلق والإيجـاد، وفى التشريع والعبـادة، وتذكر مـوقف المكذبين للرسل وتقص عليـهم ما حـاق بأمثـالهم السابقين، وتذكر شبـههم فى الوحى والرسالة، وتذكر يوم البـعث والجزاء، وتبـسط كل هذا بالتنبيـه إلى الدلائل فى الأنفس والآفـاق، وفـى الطبـائع البـشـريـة وقت الشـدة والرخـاء . . إلى آخـر مـا جاء فـى السورة مـن مقـاصـد وموضوعات، فلا غرو أن نجد فيها هذه الوصايا العشر، إذ الجو كله عقيدى وإيمانى، ودعوة لغرس الفضائل فى نفوس الخلق، واتباع منهج الحق[1].

(١) فى ظلال القرآن ـ بتصرف.

ومما يدلك على عظم تلك الوصايا ومنزلتها، ومالها من بالغ الأثر، أنك تجد هذه الوصايا فى القرآن الكريم، فى سورة الأنعام، ونظيرها فى سورة الإسراء، وتجد هذه الوصايا أيضًا - أو نحوها - فى سنة النبى ﷺ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**...﴾ إلى قوله: ﴿.. **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾»[1].

وروى الحاكم بسنده - وغيره - عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم... حتى فرغ من الآيات، ثم قال: فمن وفى بهن**

(١) رواه الترمذى.

فأجـره على الله، ومن إنتـقص منهن شيـئًا فأدركـه الله فى الدنيا كـانت عقوبتـه، ومن أخره إلى الآخرة كـان أمره إلى الله، إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه»[1].

وجاء فى معناها، حديث معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال: أمسك بيدى رسول الله ﷺ فـقال: **«يا مـعـاذ: أوصـيك بعشـر كلمـات: لا تشرك بالله شيـئًا وإن قـتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومـالك، ولا تتركن صـلاة مكتوبة مـتعـمدًا، فـإنه من ترك صلاة مكتـوبة متـعمدًا فـقد برئت منه ذمة الـله، ولا تشربن خمرًا فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعـصية، فإن بالمعصية حل سـخـط الله، وإياك والـفـرار من الزحـف وإن هلك الناس، وإن أصاب الناسَ مـوتٌ فاثبت، وأنفق على أهلك مِن طولك، ولا تـرفع عنهم عـصـاك أدبًا، وأخِـفْـهُم فى الله»**[2].

---

(١) رواه الحاكم بسنده وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه الترمذى وأبو داود.

* وكما جاءت هذه الوصايا فى القرآن والسنة، فقد أنزلها الله تعالى فى الكتب السابقة، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «هذه الآيات محكمات هن أم الكتاب، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار».

وعنه - رضى الله عنه - قال: «فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ «قل تعالوا...»»[1] وقال كعب الأحبار: هذه الآية مفتتح التوارة «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم.. الآيات» ولذا نجد هذه الوصايا فى التوراة، فى سفر الخروج، فصل عشرين، وكذلك فى الأناجيل نجدها فى انجيل متى، اصحاح ٥، ولوقا: اصحاح ١٨، ورومية: اصحاح ١٣ .

فهذه الوصايا - كما هى من أول ما نزل بمكة قبل تفصيل الأحكام - فهى كذلك أول ما نزل على موسى عليه

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: صحيح الإسناد.

السلام من أصول الدين قبل تفـصيل سائر الأحكام المدنية، لكن وصايا القرآن أجمع للمـعانى، فهى تبلغ العشرات إذا فصلت.

وقـد جـاءت الوصـايا العشـر فى التـوراة، فى سـفـر الخروج، فـصل عشرين ـ كمـا أشرنا ـ وفيـها: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصـر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى، لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا ولا صـورة مما فى السـمـاء من فـوق، ولا مما فى الأرض من تحت، ولا ما فى الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنى أنا الرب إلهك إله غيـور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجـيل الثالث والرابع من مـبغـضى، وأصنع إحسـانًا إلى ألوف من مُحِبِّىَّ وحـافظى وصاياى، لا تنطق باسم الـرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يُـبَـرِّىء مـن نطق باسمـه باطلاً، اذكر يوم السبت لتـقدسه، ستـة أيام تعمل وتصنع جميع عـملك، وأما اليوم السابع ففـيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك

وبهـيمـتك ونزيلك الذى دخل أبوابك، لأن فى ستـة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح فى اليـــوم الســـابع،!!! لذلك بـارك الرب يوم الســـبت وقدسـه، أكرم أبـاك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد علـى قريبك شهادة زور، لا تشتـه بيت قريبك، لا تشته امـرأة قريبك ولا عبده ولا أمتـه ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما يقربك»[1]!!.

وجاء فى إنجـيل لوقا (اصـحاح ١٨).. «وسـأله رئيس قـائلاً: أيهـا المعلم الصـالح.. مـاذا أعمل لأرث الحـيـاة الأبدية، فقـال له يسوع: لماذا تدعـونى صالحًـا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد هو الله، أنت تعرف الوصايا: لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهـد الزور، أكرم أباك وأمك. فقال هذه حفظتها منذ حداثتى»[2].

(١) الكتاب المقدس: سفر الخروج.

(٢) إنجيل لوقا، اصحاح ١٨ .

ومثل ذلك جاء في إنجيل متى، اصحاح ٥، ورسالة بولس إلى رومية، اصحاح ١٣ .

هذا . . وإن كنا نعتقد تحريف التوارة والإنجيل كليهما، إلا أنه لا تزال فيهما بقية باقية من الحق، مصحوبة بشيء من التحريف والتصحيف أيضًا كالنصين السابقين، والقرآن هو الحَكَمُ في ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . .﴾[1].

والذى أردنا أن نقوله: أن هذه الوصايا كانت هى أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله، كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . . .﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: [٤٨].

(٢) سورة الشورى: [١٣].

فالدين مصدره واحد، وقد اشترك فى التوحيد وأصول الفضائل، والنهى عن كبائر الفواحش والمنكرات المذكورة، فهى وصايا لجميع البشر حتى كان خاتم الرسل ﷺ.

شمولية الإسلام كما نفهمها من خلال الوصايا العشر الكرام

إن المتأمل فى هذه الآيات الثلاث والتى اشتملت على الوصايا العشر، وبهذا الأسلوب، وذلك الإيجاز، ليشهد - أولاً - أن القرآن حق، وأنه من عند الله عز وجل، وأنه يعلو ولا يعلى عليه، وما هو من كلام البشر.

ويشهد - ثانيًا - بشمولية الإسلام وكماله، مع تمامه وجماله، وصلاحه للبشر وإصلاحه، وصلاحيته لكل زمان، وعالميته فى كل مكان، وأنه خير منهج يصلح بنى الإنسان، وإن شئت أضفت إليهم عالم الجان، ولم لا؟ وهو دين الملك الديان، ومنهج الرحيم الرحمن.

فالآيات إشارة واضحة على شمولية الإسلام، وأمارة بينة على عظمة منهج الملك العلام، وفيها رد على قاصرى

النظر، ودعاة العلمنة، وسائر أعداء الإسلام، ممن زعموا أن الإسلام شعائر جوفاء، وأن الدين طقوس جرداء، وأن الدين قعيد معبد أو مسجد، قاصر على حصير، منحصر فى سجادة، فيه قم واقعد، أو اركع واسجد، ولا دخل له بشئون الحياة، فلا ينظم حكمًا ولا يذكر سياسة، ولا يقرر قضاء، ولا دخل له بحياة الناس فى المجامع، أو البيوت والشوارع، أو المحاكم والمصانع، أو المتاجر والمزارع، يجب على الدين أن يقرر: الدين لله والوطن للجميع!! أو أن يعلن: ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!! حتى يصير ما لله لقيصر أيضًا!!.

ونحن نعلن: أن قيصر وما له، لله الواحد القهار، وأن الدين لله، والوطن لله، والأرض كلها لله، والخلق خلق الله، والأمر أمر الله، والحكم حكم الله ﴿... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: ٤٠ .

والوصايا العشر تقرر شمولية الإسلام، دين فيه صلاح العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، دين فيه صلاح الأفراد والأسر والمجتمعات، وانظر إلى الوصايا وتأمل تلك الشمولية، وهذه المنهجية، ترى عظمة هذا الدين، ففى الوصية الأولى صلاح لجانب العقيدة متمثلة فى عدم الشرك بالله الواحد الحق، وفى الوصية الثانية والثالثة صلاح لجانب الأسرة من حيث الأصل (الوالدين) والفرع «الأبناء» وفى الوصية الرابعة والخامسة صلاح للمجتمع بالبعد عن جريمة الزنا وجريمة القتل، فبالبعد عن الزنا لا تنهار الأسر باختلاط الأنساب، وبالبعد عن القتل لا تنهار المجتمعات، ويتحقق الأمن، الذى تفتقده الأمم الآن، فى ظل البعد عن شرع الرحمن.

وفى الوصية السادسة والسابعة: صلاح أخلاق الأمة المسلمة بالتكافل الاجتماعى ورعاية حق الضعفاء واليتامى، وحسن المعاملة بعدم الغش وتطفيف الكيل والميزان.

وفى الوصية الثامنة والتاسعة نجد قمة العدل ومكارم الأخلاق، قول بالعدل ولو على النفس، ووفاء بالعهد مع الله ومع الناس ومع النفس.

وفى الوصية العاشرة والأخيرة دعوة إلى وحدة الأمة المسلمة، وصلاح حياتها ونجاحها فى آخرتها باتباع منهج ربها الواحد، والبعد عن سبل الشياطين، وطرق الضالين، ومناهج المبطلين، ووسائل المنحرفين..

فما أعظمها من وصايا، وما أجلها من آيات، وما أفضله من منهاج، وما أنجعه من علاج، فهى الدواء الشافى، والعلاج الكافى، والمنهج الوافى، والحصن الواقى، والدين الوافى، منهج جمع فى طياته بين الربانية والإنسانية، والواقعية مع المثالية، والثبات مع المرونة، كما فيه الوضوح والشمولية، والعظمة مع الوسطية، فالله أكبر إنه كتاب ربنا، ومنهج خالقنا، وهدى نبينا، وإعجاز قرآننا:

الله أكبـر إن دين محمد وكـتابه
أقـــوى وأقـــوم قـــيـــلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده
طلع الصبـاح فأطفـئوا القنديلا

وهكذا نرى الآيات الثـلاث، بوصـاياها العـشـر تعطى منهـجًا مـتكاملاً، تتـضح به معـالم الطريق، ويستنيـر به الإنسان فى ظلمات الدروب.

«إنها قوام حيـاة الضمير بالتوحيد، وقـوام حياة الأسرة بأجيالهـا المتتابعة، وقـوام حياة المجتـمع بالتكافل والطهارة فيمـا يجرى فيه من معـاملات، وقوام حياة الإنسـانية وما يحوط الحقوق فيها من ضـمانات، مرتبطة بعهد الله، كما أنها بُدِئت بتوحيد الله، وننظر فى ختام هذه الوصايا، فإذا الله سبحانه وتعالى يقـرر أن هذا صراطه المستقيم، وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواحد الحق.

* إنه أمر هائل هذا الذى تضمنتـه الآيات الثلاث، أمر هائل يجىء فى أعقـاب قضية تبـدو كأنها لمحة جانـبية فى

الجاهليـة، ولكنها ـ فى الحـقيقـة ـ هى قضـية هذا الدين الأساسية بدلالة ربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية»[1].

وهذا يجـعلنا نتحـدث ـ بعـد ـ عن مناسبـة الآيات لما قبلها. . .

(١) فى ظلال القرآن جـ٣ صـ ١٢٢٩ .

مناسبة الآيات لما قبلها

لقد جاءت هذه الوصايا فى سياق الحديث عن تشريعات الأنعام والحرث والثمار، وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها، فجاءت هذه الوصايا لتضع النقاط على الحروف، ولتفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين الجاهلية والإسلام، فبين الله تعالى فيما قبل هذه الآيات حجته البالغة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله عليهم، ودحض شبهاتهم التى احتجوا بها على شركهم به وافترائهم عليه، بعد أن بين لهم جميع ما حرمه على عباده من الطعام، فهم قد حرموا وحللوا حسب أهوائهم، ومن تلقاء أنفسهم، كما بين الله تعالى فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾[1].

(١) سورة الأنعام: [١٣٦].

وكذلك ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ... ﴾[1].

فبين الله عز وجل لهم أن الحكم له، لا لهم، والتشريع حقه، وليس حقهم، وحق التحليل والتحريم لإله حق، لا لعبيد من البشر يخطئون ويصيبون.

وأنت ترى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ... ﴾[2] أنها مواجهة هائلة، ومواجهة كذلك فاصلة، ودلالتها على طبيعة هذا الدين غير خافية، إن هذا الدين يسوى بين الشرك العلنى الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله، وبين الشرك الآخر الذى يتمثل فى مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله، دون اعتبار لما يَدَّعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة الله، كما أنه يَصِفُهم ويَصِمُ الذين يرتكبون هذه الفعلة بأنهم يُكَذِّبُونَ

---

(1) سورة الأنعام: [١٣٨].

(2) سورة الأنعام: [١٥٠].

بآيات الله، ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون، أى يجعلون له أندادًا تعدله، فتعالى الله عما يقولون، وتنزه وتقدس عما يفترون.

فهذا حكم الله على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس، دون اعتبار لدعواهم، فليس بعد حكم الله رأى لأحد فى هذه القضية الخطيرة، وليس بعد شرع الله قانون، أفبعد حكم الله نحكم، أو بغير شرعه نقضى ونرسم، أو غير الله نبتغى حكمًا وهو أعظم حكَم، وحكمه أفضل حكم، فهل هناك حكم يساويه؟ أو قانون يضاهيه، أو شرع يدانيه؟!!.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]؟ لا أحد ومن ثم كان مفتتح تلك الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فهو وحده الذى بيده حق التحليل والتحريم[2]، وهذا هو العنصر القادم بإذن الله تعالى..

(١) سورة المائدة: [٥٠]. (٢) انظر فى ظلال القرآن جـ٣ صـ١٢٢٨ والمنار بتصرف جـ٤ / ١٦٠.

إن المتأمل فى تلك الجملة التى بدأ الله عز وجل بها تلك الوصايا يرى العجب العجاب، ففى كل كلمة منها تستنبط قاعدة، وتضح حكمة، وَرَدٌّ على شبهة، ودَحْضٌ لِضَلالَة، فالله أكبر وهاك شيئا من البيان، بغير توسع فى ذلك.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أول كلمة فى تلك المقدمة، دليل على أن القرآن من عند الله تعالى، وليس من عند محمد ﷺ، وإلا لما وردت كلمة ﴿قُلْ﴾ أو كان على الأقل ينساها النبى ﷺ، وقوله ﴿قُلْ﴾ أى قل لهم يا محمد، فمحمد ﷺ مأمور بالتبليغ، وليس آمرًا، وهو فى ذلك مبلغ عن ربه، وليس مشرعًا، ولا يشرع ﷺ إلا فيما أذن الله عز وجل له فيه، وهو لا يزيد فى تبليغه ولا ينقص ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1] كما قال أيضًا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا

(١) سورة المائدة: [٦٧].

بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾[1] .

و﴿قُلْ﴾ أسلوب تلقين من الله تعالى لنبيه ﷺ، يلقنه حجته، ويبين له رسالته، ويوضح له شِرْعَتَه، فَمَن الآمر إذن؟ إنه الله وتبقى كلمة ﴿قُلْ﴾ على مدى تاريخ البشرية، لا يستطيع بشر أن يحذفها، مهما قذف! أو أرغى وأزبد، ولا يحق لكتاب أن يشكك فيها، أخضر كان أو أسود ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[2] .

وقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا﴾ أى قل لهؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم تعالوا إلىّ، وأقبلوا نحوى (تعالوا) هو خطاب من الله تعالى إلى كل من يعقل الخطاب، إلى جميع المكلفين الذين زودهم الله بالعقل ووهبهم الحواس، وأرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وأنزل عليهم كتابًا يهدى للتى هى أقوم.

---

(١) سورة الحاقة: [٤٤ - ٤٧]. (٢) سورة الأنبياء: [١٨].

و﴿ تعَالَوْا ﴾ في معناها اللغوى: أى هلموا وأقبلوا واحضروا.

ولكن ليس هذا فقط، بل فيها فوق معنى الحضور والإقبال والمجيء، معنى العلو والرفعة، فهو حضور فيه رفعة، ومجيء فيه علو، وإقبال فيه عزة.

وأنه في حضوركم واقبالكم على أحكام ربكم ما يرفع شأنكم ويعلى قدركم، وفى التمسك بكتاب ربكم عزكم والعمل به ذكركم ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[١].

كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

فالكلمة رد على مزاعم أعداء الإسلام حيث زعموا أن التمسك بالدين تخلف، وأن العودة إلى شريعة الله

(١) سورة الزخرف: [٤٣ - ٤٤].
(٢) سورة الأنبياء: [١٠].

رجـعـية، وأن الالتـزام بالقـرآن والسنة تزمـت وتقهـقـر وانحطاط، فإذا بهذه الكلمة ـ صغـيرة المبنى، عظيمة المعنى ـ تضع الأمر فى نصـابه، وترد على مزاعم أعـداء الإسلام بأن التـمسك بمبـادىء الدين عـزة وكـرامة، والرجـوع إلى شرع الله فيه السيادة والخلافة، وفى الإقبال على الله تعالى وعلى منهـجـه العلو، والرفـعـة، لا العكس من ذلك..

زعموا والأصل فى كلمة ﴿تَعَالَوْا﴾ أن يقولها من كان فى العلو لمن هو أسفل منه، ثـم توسع فيها حـتى عمت، من كان أعلى، ومن كان مجاورًا أو بعيدًا.

ولكن فى الكلمـة ما يدل ـ من ناحـية العـقيـدة ـ على صفة من صفات الـله تعالى وهى «العلو» وما يذكرنا باسم من أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ وهو «العلى» وكذا «الأعلى» فلله تعالى العلو بكـل معانيه، علوا الذات، وعلو القـهر، وعلو المكانة والمكان، مع تـنزيهه سـبحـانه وتعـالى عمـا يتـصف به خلقـه من الجهـة والمكانيـة والحلول والانتقـال

فسبحانه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(1).

ونقول مع القرآن: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(2) ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(3) وكذا ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾(4) سبحان ربى الأعلى.

ثم ماذا؟ بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ تأتى كلمة ﴿أَتْلُ﴾ أى أقرأ وأردد أو أكرر وأقص عليكم فهى معانى كثيرة، اختصرها القرآن فى كلمة صغيرة ﴿أَتْلُ﴾ أخبركم بما حرم ربكم عليكم باليقين، لا بالظن والتخمين، وَحْيًا من عنده وأمرا، لا تخرصا وظنا ،وفيها إيماء قوى بأن المتكلم يقدر المخاطبين، ويرتفع بهم إلى درجة أنهم لا يحتاجون فى الإرشاد إلا أن يتلو عليهم ما يريد.

وفيها بيان أن مهمة الرسول ﷺ إنما هى تعليم وتوجيه بتلقين من الله تعالى فيه تزكية النفوس، وتربية الأمة

---

(1) سورة الشورى: [11].

(2) سورة الأنعام: [18 - 61].

(3) سورة البقرة: [255].

(4) سورة الأعلى: [1].

وتعليم الناس، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (ما حرم) أى حرمه حقًا، لا ما تدعـونه أنتم أنه حرمه عليكم بزعمكم، ولماذا ذكر (ما حرم) ولم يقل (ما أحل) لأن الحرام معدود، والحلال غير محدود، فناسب أن يذكر القليل المعدود، ليعرف بعد الحلال الكثير غير المعدود، فمن فضل الله عز وجل على هذه الامة أنْ أكثَرَ من حل طيباتها، على عكس اليهود مثلاً وقد قال الله فيهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[2] كما امتن الله تعالى على أهل الكتاب ببعثة النبى الأواب، الذى أعلى الله ذكره فى الكتاب، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

(١) سورة آل عمران: [١٦٤]. (٢) سورة النساء: [١٦٠].

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

ومن الذى يحل أو يحرم؟ إنه الله ربكم **«ما حرم ربكم»** ولم يقل ما حرم الله!! بل جاء بلفظ «رب» أى الذى له وحده حق الربوبية - التى تقرون بها جميعًا، الربوبية التى هى خلق ورزق وقوامة وتربية وتوجيه وحاكمية وملك وسيادة وتصريف، فهذا اختصاصه إذن، وموضع سلطانه، فالذى يحرم هو «الرب» والله وحده الذى يجب أن يكون ربًا، لأنه هو الذى خلق، فهو إذن يأمر ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[2] ولأنه رزق فهو الذى يهيمن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾[3].

(١) سورة الأعراف: [١٥٧].

(٢) سورة الأعراف: [٥٤].

(٣) سورة فاطر: [٣].

ولأنه هو الذى يـعلم ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1] بلى، يعلم، فلما علم حكم ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ... ﴾[2] وأما أنا وأنت، فلـم نَخْلُق ولـم نَرْزُق، ولم نَعْـلَم، فلم نـحكم؟ وكيف نحكم؟ وبم نحكم؟!! ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ... ﴾[3]؟!! ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] فـالحكم لله العلى الكبيـر، لا يملك مسلم أن يجادل فيـه، ولا أن يسلبه عن ملك الملوك فقد صـدرت فيه كلمة الفـصل التى لا معقب لها، فليـنظر المسلم كيف يتـأدب أمام كلمة العـزيز الحكيم ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ

(١) سورة الملك: [١٤].
(٢) سورة يوسف: [٤٠].
(٣) سورة الشورى: [٢١].
(٤) سورة النحل: [١١٦ - ١١٧].

بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1].

والذى يفهم معنى العبادة، وأنها لا تكون إلا لله، يدرك أن الحكم جزء منها وأنه لا يجوز لغير الله، لذلك جاءت الآية بأسلوب الحصر والقصر، مع تقديم الحكم على العبادة للأهمية ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

فالذى له حق التحليل والتحريم، وحق الحاكمية هو الله، ومن انتزع هذه الخاصية عن الله تعالى فقد زعم لنفسه - أو زُعم له - الربوبية، كما قال تعالى: - عن أهل الكتاب - ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

ولما سمع «عدى بن حاتم» هذه الآية من رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، ماعبدناهم!! قال يا عدى: أما كانوا

(١) سورة الأنعام: [١١٤ - ١١٥].
(٢) سورة التوبة: [٣١].

يحلون لكم الحرام فتحلونه، ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه؟! قال: بلى، قال: فتلك إذن»[1].

فليس التحليل والتحريم من حق حاكم ولا عالم، فإنْ حكَمَ الحاكمُ بغير ما أنزل الله فقد قال الله تعالى فى قرآنه الكريم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[2] وأردفها بقوله ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وكذلك ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وإن حكم العالم بغير ما أنزل الله فأحل حرامًا أو حرم حلالاً، فقد نصب نفسه مشرعًا أو إلهًا، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[3]؟! ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ربكم وحده، الذى هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[4] ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

---

(1) رواه البخاري.
(2) سورة المائدة: [٤٤، ٤٥، ٤٧].
(3) سورة الشورى: [٢١].
(4) سورة الفاتحة: [٢ - ٤].

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(1) ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(2) ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(3) ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(4).

---

(1) سورة البقرة: [21].

(2) سورة الأنعام: [102، 103].

(3) سورة الأعراف: [54].

(4) سورة غافر: [61 - 65].

الوصية الأولى

﴿ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

إنها قاعدة الدين، وأساس الإسلام، وهى التى يقوم عليها بناء العقيدة، وبدونها يكون البناء على غير أساس، فسرعان ما ينهار كما قال تعالى: **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[1].

إنها الأساس الذى بدونه لا يكون البناء، وإن كان فهو باطل لأنه على غير أساس، كما قال تعالى: **﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[2] **﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** إنها التخلية قبل التحلية، كما أنها الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، كما قال تعالى:

---

(١) سورة التوبة: [١٠٩].   (٢) سورة المائدة: [٥].

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

كمن إذا أراد أن يبنى بيتًا فإنه لا يضع الأساس على كومة من القمامة، ولا يرفعه فوق أرض هشة أو تربة سبخة، وإنما هو يحفر حتى يصل إلى الأرض الصلبة، وقد أزال كل هذه القمامات، فكان لابد من إزالة كل صور الجاهلية، والكفر بكل مظاهر الطاغوتية، وانكار كل رب زائف وإله باطل.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إنها معالم العقيدة التى ترجع إليها التكاليف والفرائض، وبها تصح العبادات، وتستمد منها الحقوق والواجبات.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إنها القاعدة التى يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول فى الأوامر والنواهى، وقبل الدخول فى التكاليف والفرائض، وقبل الدخول فى الأوضاع والنظام أو الشرائع والأحكام.

---

(١) سورة البقرة: [٢٥٦].

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ حيث يجب على الناس ـ ابتداء ـ أن يعترفوا بربوبية الله وحده، كما يعترفوا بألوهيته، وألا يشركوا به أحدًا فى ربوبيته وألوهيته، اعتراف بأنه وحده هو الذى خلق هذا الكون، ورزق هؤلاء الخلق، وهو مالك الملك، والمتصرف فى الكون، والسيد عليه، وهو الحاكم له وحده، لأنه خلق فله حق الأمر والنهى ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾[1]، وأنه سبحانه هو الذى يدبر الكون ويدير الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾[2] اعتراف بأنه وحده الإله الذى يستحق أن يفرد بالألوهية، وأن يخص بالعبادة فمن ذا غيره الذى يستحق أن يعبد، وهو الذى خلق وليس له شريك، ورزق وليس له شريك، وهو المتصرف فى

(1) سورة الأعراف: [٥٤].
(2) سورة يونس: [٣١،٣٢].

الكون كله بغير شريك، فينبغى أن يعبد بغير شريك، عبادة شاملة، كاملة، مليئة بالتوحيد الخالص، بعيدة عن كل شوائب الشرك، البعد عن الشرك فى الربوبية أو الإلهية، أو الأسماء والصفات، بعد عن الشرك فى الحاكمية والتشريع، وفى المحبة والطاعة. . . الخ.

لأن الشرك هو جريمة الجرائم، وكبيرة الكبائر، وفاحشة الفواحش، وهو أول منهى عنه، وأشد مذموم، وأعظم منكر فى كل دين ورسالة وكتاب «ألا تشركوا به شيئا» دعوة إلى تنقية الضمير من أوشاب وشوائب الشرك، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد، إلى عبادة رب العباد.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نهى عن الشرك بكل صوره، كبيره وصغيره، وجليه وخفيه، سواء أكان شركًا مع الله، أم فى عبادته، أم فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، الشرك

ـ فى كل صـوره محـرم، بل هو المحرم الأول، لأنه يجـر إلى كل محـرم ومنكر، بل هو المنكر الأول الذى يجب أن يحشد الإنكار كله له، بل أقـول: إن كلمة محرم أو منكر قليلة أمـام أى مظهـر من مظاهر الشـرك الذى تفـشى فى الأمم، وحـتى هذه الأمـة التى كـان ينـبـغى أن ترفع راية التوحيد، حيث هم أتباع نبى التـوحيد، النبى محمد ﷺ، الذى هو امتـداد لأبيه إبراهيم الذى هو أمة التوحـيد ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وقـال الله تعالى أيضـا: ﴿ ... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ... ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: [١٢٠ ـ ١٢٣]. (٢) سورة الحج: [٧٨].

﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ دعـوة لمحاربة الشـرك بكل صنوفه وألوانه، حتى يعترف الناس أنه لا إله إلا الله، التى هى فى مـعناها: لا مـعبـود بحق إلا الله. فـهى اعتـراف بوجود الله تعـالى ووحدانيتـه وكماله، واعـتراف بتوحـيد ربوبيته وألوهيته وذاته وأسمـائه وصفاته، ويقين بأنه كما لا ينبغى أن نتـوجه بالشعـائر لغير الله، فـكذلك لا ينبغى أن نأخذ الشرائع من عند غير الله، فالحاكمية جزء من العبادة، والعبادة مظهر من مظاهر التوحيد، والعكس من هذا المعتقد يكون شركا ولو مع اعتراف الإنسان بالتوحيد المجرد، ومن هنا جاء فى السياق «شيئا» حتى تكتمل كل معالم التوحيد، ويحذر الإنسان كل صور الشرك، ويكون الدين كله لله.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.. أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ومن هذا الذى ينبغى أن نشـركه مع الله؟! هل فى الكون شىء يذكـر يستـحق أن يكون إلهـا، أو ندًا لله، أو شريكا معـه فى الكون؟! من؟!!! أهى الأصنام التى عبدها الناس، وزعموا لهـا الألوهية، وتوجهوا لهـا بالعبادة؟! يا

للعجب.. بشر يعبد حجرًا!! من يعبد من؟ آلذى يسمع ويبصر يعبد ما لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، أحجار ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها، إذا ترك الرجل صنمه بغير حراسة راح كلبه يبول عليه، فيأتى ليقوم بغسله، أو قام بركله!!

وهذه أصنام تركها أصحابها - أيام خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام - بلا حراسة، فقام إليها إبراهيم عليه السلام فحطمها تحطيما، وجعلها جذاذا - قطعا صغيرة - إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، فلما شاهدوها بتلك الحال قالوا: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1]؟ سبحان الله، عبد من العباد يفعل هذا بالآلهة ولا تدافع عن نفسها، فكيف إذن تدافع عن عبادها؟!!، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

(١) سورة الأنبياء: [٥٩]

هذا فاسْأَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾[1] فما استطاعوا نطقا ولذلك ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2] أى فى عبادتكم لآلهة لا تنطق ولا تدافع عن نفسها أو ظالمون فى ترككم الآلهة بدون حراسة، أو ظالمون فى اتهام إبراهيم بغير بينة ولا دليل، ثم قلبوا الدفة حتى لا يهزموا نفسيا أمام إبراهيم ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴾[3] وهنا صدع إبراهيم بالحق ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[4] فلم يجدوا جوابا، ولم يلقنوا حجة، فواجهوا الحجة بالإرهاب، وتركوا الإقناع إلى التعذيب، ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[5] ومرة أخرى، وكأن عقولهم مغيبة يقولون ﴿ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ فهذه آلهتهم التى كانوا يعبدونها، قطعة حجر أو قطع من

---

(١) سورة الأنبياء: [٦٠ - ٦٣].
(٢) سورة الأنبياء: [٦٤].
(٣) سورة الأنبياء: [٦٥].
(٤) سورة الأنبياء: [٦٦ - ٦٧].
(٥) سورة الأنبياء: [٥٨].

الأحجـار، ينحتونهـا ثم يعبدونهـا، فهل قطعة حـجر من الأرض، بل الأرض كلهـا ـ تصلح لتكون إلهـا خـالقـا رازقا؟!!

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وهل يمكن أن يكون هذا الشىء بقرًا!

فقد تـسفل البشر فـعبدوا البقـر ـ كما عبـدوا الحجر ـ وليست عبادة البقر كـانت فترة من الزمان ثم انتهت، كلا، وإنما لا تزال عبادة البقر إلى يوم الناس فى الهند، كما عبد عجل «أبيس» عند القدماء المصريين، ومعه أنواع من الطيور والحيوانات، سبحان الله: عجل بقر يعبد على أنه إله!! ما شاء الله على الإنسان، وهو يصل إلى هذا المسـتوى، متى رأى بقرة تمثل أمـامها خاضـعا خاشعا يقـدم فروض الولاء والطاعة، ومظاهر التقديس والتعظيم.

بقر إله!! عجل يصبح إلها!! ماذا يا قوم؟ أين العقول؟ أين كرامة البـشر، وهم يعبدون البـقر؟ وفى الهند ينتظرون بولة البـقرة أو روثهـا لتحل عليـهم البركـات!! أعيـرونى

عقولكم.. أى عـجل من البقر مهـما زاد لحمه وشـحمه، وتجمل لونه، وغلا ثمنه، يصلح أن يكون إلـها؟ فما الذى يوضع فى أطباق الآكلين؟!!

وعندما ذهبت إلى بنجـلاديش أستاذا زائرا فى الجامـعة الإسلامية هناك!، وجدت لحم البـقر أرخص اللحوم، فلما سألت: عرفت أن السبب فى ذلك أن البقر بعد أن يعبد فى الهند، ويكبـر سنه، ويخشى مـوته أمام عبـاده فى الهند، يسربونه إلى بنجـلاديش بجوارهم، فكنت فـيمن رأى هذا البقر الذى شبع عبادة فى الهند، فكنت أستقذر رؤيته فضلا عن تذوق لحمه!!

﴿أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أهى النار التى عبدها المجوس، ولا يزالون!!

عجبا لتسفل البشر وهم يعبدون النار، ولو فكر الإنسان تفكيـرًا مجردا بعـيدا حـتى عن الإيمان لأدرك أن الذى يمد النار بالوقود أفضل منها، وأولى بالتقديس منها!!

أمـا فكر الإنسان لو أنـه ترك النار بعض الوقت دون أن يمدها بالوقود!!

أى نار هذه التى تعبد؟ أهى تخلق وترزق؟ أم أنها تدمر وتحرق؟

أليست هذه النار مهمـا كبرت جذوتها أو اشتد لهـيبها، وطالت مدة وقودها، يأتى عليـها وقت فتخمـد جذوتها، وينطفئ لهيبها؟!! وتصير رمادا، أو لا تكون شيئا يذكر.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ترى هل الـكواكب تصـلح لتكون إلها؟ كحال هؤلاء الذين عـبدوها أيام سيدنا إبراهيم عليه السـلام، فأبطلها ـ بطريق التدرج مـعهم، مع المداراة والموارأة ـ واحـدًا تلو الآخـر، وقد لُـقِّن حجـتـه من الله تعالى، فـأى كوكب هذا الذى يصـغر ويكبـر، ويظهر ثم يأفل ذاك الذى يصـلح أن يكون إلهـا يديـر الكون، ويدبر الأمر، ويمسك السماء أن تقع على الأرض؟!!

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ لا من الحجر ولا مـن الشجر ولا من البقـر، ولا نار، ولا نجم ولا شمس ولا قـمر ولا تشركوا به شيئا من البشر. فمن من البشر ادعى الألوهية؟

آلنمـرود، ذلك الذى عجـز أن يحول مـسار الشـمس، فأنى له أن يخلقها أو أن يخلق غيرها؟ ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[١].

وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[٢] وإذ يقـول: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة: [٢٥٨].

(٢) سورة الأعراف: [١٩٤].

(٣) سورة الحج: [٧٣،٧٤].

فهذا النمرود فى حيـاته وعند موته. فهل يصلح العاجز أن يكون إلها؟!

أم لعله «فرعـون»؟ وماذا عن فرعـون هذا أيضا؟ ملك مصر، وطوع أهلها أو استخف قومه فأطاعوه، فزعم لنفسه الألوهيـة يوم أن قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1] كمـا زعم الربوبية أيضا فـقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[2] فعاقبه الله تعالى على هذا وذاك ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[2].

ومن العـبـرة ـ قبل ذلـك ـ أن نرى فرعـون وقـد زعم الألوهية، فزاره إبليس ـ عليـه لعنة الله ـ فدق عليه الباب، فقال فرعون ـ عليـه لعنة الله ـ: من بالباب؟ فقال إبليس: تبا لك! إله ولا تعلم من وراء الباب!!

فرعون الذى زعم الألوهية، عجز عن تلبية رغبة زوجته «آسيـة بنت مزاحم» فـى انجاب الولد، فـاستعـاضت عنه بموسى وقد حمله الصندوق إلى قصر فرعون!!

(١) سورة القصص: [٣٨]. (٢) سورة النازعات: [٢٤:٢٦].

وعجـز عن مواجهـتها إذ آمـنت برب موسى وهارون، فلجأ إلى تعذيبها، فدعت ربها فقالت ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(1) وعجز فـرعون أمام سحـرته الذين كانوا يقولون أول الـنهار ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾(2) فلما أدركوا الحق وعرفوا الحقيقة، وآمنوا بالله رب العالمين، فـأنكر فرعـون ذلك عليـهم دون إذن منه، وسـابق علم، فتوعدهم بصنوف من العذاب، فقالوا له ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾(3) ثم هـو فى نهاية المـطاف يغرق، ويدعى عند غرقـه الإيمان، ويعلن الإسلام.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

(1) سورة التحريم: [11].

(2) سورة الشعراء: [44].

(3) سورة طه: [72، 73].

الَّذي آمَنَتْ به بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1] لقد غرق فرعون، وتلك نهايته، فهل رأيت إلها يغرق؟!!

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ولكن الناس أشركوا، فعبدوا من دون الله أنبياء فهؤلاء اليهود زعموا بنوة العزير، وهذه النصارى زعمت بنوة عيسى أو ألوهيته أوشركته قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2].

وأى شىء ذلك الذى يجعل عزيرا أو عيسى أو غيرهما أبناء لله؟

والله عز وجل يقول: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[3] كما قال عز من قائل: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ

---

(١) سورة يونس: [٩٠ - ٩٢].

(٢) سورة التوبة: [٣٠].

(٣) سورة الزمر: [٤].

وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[١] كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[٢].

وكذا قال: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[٣].

وعيسى عليه السلام كان معجزة فى ولادته بغير أب، وحمل أمه به من غير زوج، وهو فى هذا لا يعدو إلا أن يكون كآدم عليه السلام، بل إن آدم بغير أب ولا أم، ومع ذلك فقد اشتركا فى معنى المعجزة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنعام: [١٠١-١٠٣].

(٢) سورة الزخرف: [٨١].

(٣) سورة يونس: [٨١].

(٤) سورة آل عمران: [٥٩].

والملائكة أرقى فى الخلق منهما ومع ذلك ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[1].

وما وجه احتياج الله عز وجل لولد لولد أو شريك؟! ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا﴾.

﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ كالذين زعموا أن الملائكة بنات الله أو أبناء الله!!

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

---

(١) سورة النساء: [١٧٢].

(٢) سورة الزخرف: [٨١].

(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[1].

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ كالذين جعلوا الجن شركاء الله ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2].

وكذا قال الله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] كما اتخذوهم وسيلة إلى الله، قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: [٢٦ - ٢٩].

(٢) سورة الصافات: [١٥٨ - ١٦٠].

(٣) سورة الأنعام: [١٠٠].

(٤) سورة الإسراء: [٥٧،٥٦].

واتخذوهم معاذا وملجـًا كذلك ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[1].

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ فلا ولد لله من ملائكة أو أنبياء أو جن أو غيرهم.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[2].

﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ من الأنبياء، لأنهم عباد الله وليسوا آلهة ولا أبناء إله، ولا شركاء مع الله، ولكنهم بشر منَّ الله عليهم من بين عباده، وأوحى إليهم، وتلك ميزتهم، لهم حق التفضيل والتكريم، وليس لهم الحق فى العبادة والتعظيم.

---

(١) سورة الجن: [٦].

(٢) سورة مريم: [٨٨ - ٩٣].

﴿ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ من عالم الأولـياء، لأنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقـون، ولا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهـم - ضرا ولا نفعا ولا يملكون مـوتا ولا حياة ولا نشورا، لأنهم كما قال الله ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1] وكذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] وأيضا ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3].

﴿ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ لأنه ليس ثمة شيء في الكون - كبر أو صغر، عظم أو حقر - يصلح أن يكون إلها، حتى

---

(١) سورة الزمر: [٣٨].

(٢) سورة الأعراف: [١٩٤].

(٣) سورة فاطر: [١٣، ١٤].

يكون شريكا مع الله تعالى، ولذلك فـالقرآن الكريم يجمل القضية، ويبسط المسألة على طريقة الافتراض الجدلى، هل يمكن أن يوجـد فى الكون إله آخـر مع الله؟! قال تعـالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[١] وكذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢] وقال أيضا: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣] وفى الختام ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾[٤].

وقل مع القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾[٥].

أ.هـ[٦].

---

(١) سورة الإسراء: [٤٢، ٤٣].
(٢) سورة الأنبياء: [٢٢].
(٣) سورة المؤمنون: [٩١، ٩٢].
(٤) سورة محمد: [١٩].
(٥) سورة الإخلاص بكاملها.
(٦) راجع بتوسع كتابنا: حقيقة الإيمان.



الوصية الثانية: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ .

أى الأمر الثانى مما أتلوه عليكم، ومما وصاكم به ربكم أن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا تاما كاملا لا تدخرون فيه وسعا، ولا تألون فيه جهدا.

وهذا يستلزم من باب أولى، أو بمفهوم المخالفة - ترك الإساءة وإن صغرت، فكيف بالعقوق المقابل لغاية الإحسان، وهو من أكبر الكبائر، وأعظم المحرمات.

ولذلك عدل القرآن الكريم من أسلوب النهى الذى هو «لا تعقوا والديكم» فى مجال ذكر المحرمات، إلى هذا الأسلوب من باب الأمر ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ليبلغ بالإحسان إلى الوالدين منزلة عليا، ودرجة قصوى، ولم لا؟ ودائما تجد الإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادة الله عز وجل أو عدم الشرك به، وكفى بالبر هذه المنزلة، وتجد ذلك واضحا فى سورة البقرة، والنساء والأنعام - هذه الآية - والإسراء ولقمان، كما نجد ذلك فى السنة أيضا.

وكما يقول القرطبى رحمه الله تعالى: «لو لم يرد فى التنزيل إلا قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ - ولو غير مكرر - لكفى فى الدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين، بما تدل عليه الصيغة والتعدية فكيف وقد قرنه بعبادته، وجعله ثانيها فى الوصايا، وأكده بما أكده به فى سورة الإسراء، كما قرن شكرهما بشكره فى وصيته سورة لقمان فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[1] فما هو الإحسان إلى الوالدين؟ إنه البر بهما، والقيام بحقوقهما، والتزام طاعتهما، واجتناب إساءتهما، أو ارتكاب ما يغضبهما، وفعل ما يرضيهما، والبر حق لازم على كل حال إلا ما حرم حلالا، أو أحل حراما، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وعكس ذلك هو عقوق الوالدين بمعنى عدم الالتزام بحقوقهما، والبعد عن طاعتهما، ومحاولة الإساءة لهما - وارتكاب ما يغضبهما، والتسبب فى بكائهما أو شتمهما، وايذائهما ولو بكلمة «أف» أو بحدة النظر إليهما.

(١) سورة لقمان: [١٤]، وراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.

ومن هنا نجـد عناية القرآن الكريم بهـذه القضـية فنـجد أوامر الرحمن، ووصـايا القرآن، وعلى سبيـل المثال يقول الله تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾[1].

ويقـول تعـالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾[2].

وهـذا الموطن الثـالث فى هذه الآية التى نحن بصـددها ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾[3].

ونجد تفصيلا فى الموطن الرابع فى سورة الإسراء، حيث يقـول الله تـعـالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)

---

(١) سورة البقرة: [٨٣]. (٢) سورة النساء: [٣٦].

(٣) سورة الأنعام: [١٥١].

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1] فقوله ﴿وَقَضَى﴾ أى وصى وأمر، بماذا؟ بعبادته أولا، وبالإحسان إلى الوالدين ثانيا، فقرن الإحسان إليهما بعبادته، فأكد حقهما بعد حقه تعالى، ثم أكد القرآن الكريم على هذه المعانى الطيبة، على أنه إن كان الإحسان إلى الوالدين حقا لازما طوال حياتهما، فهو آكد عند بلوغ الكبر، حيث إنهما أكثر احتياجا إلى الإحسان فى ذلك الوقت من ذى قبل، فهم مع كبر السن يحتاجون إلى المعونة والمساعدة، ومن أولى الناس بذلك، إن لم يكن ابنهما - أو أبناءهما - الذين ربوهم فى الصغر وتعبوا عليهم، وسهروا من أجلهم، ما هو أضعاف أضعاف ما يقوم به الأبناء جميعا، مهما كان الأمر.

وقد جاء فى الحديث **«لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»**[2].

---

(١) سورة الإسراء: [٢٣، ٢٤].

(٢) رواه مسلم وغيره.

ورضى الله عن ابن عمر وقد رأى رجلا يطوف بالكعبة حاملا أمه على رقبته، فقال يا ابن عمر: أترانى جزيتها؟ قال: ولا بطلقة - ما يحدث للمرأة عند ألم المخاض - واحدة، ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيرا»[1].

ثم انظر إلى أسلوب القرآن وهو يقول: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ لم ينه عن الضرب أو السب أو البكاء أو نحو ذلك، وإنما نهى عن مجرد الضيق والضجر، والتعبير عنه بكلمة أو بحركة يفهم منها التأفف، وقد جاء فى الأثر، «لو علم الله تعالى شيئا أدنى من الأف لنهى عنه سبحانه».

ثم بعد أن نهانا القرآن عن أن نسمعهما قولا سيئا حتى ولو التأفف الذى هو أدنى مراتب القول السيىء، أمرنا أن نقول لهما قولا لينا طيبا حسنا كريما، بتأدب وتوقير وتعظيم، كأن لا نناديهما باسمهما، بل نقول مثلا: يا أبت، يا أماه.

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (١١) وقال الألبانى فى صحيح الأدب المفرد: صحيح الإسناد.

ثم أمر بالتواضع لهما بفعلك وفى قولك، والتودد إليهما والشفقة عليهما، واستعمال غاية الأدب معهما، ثم الدعاء لهما سواء أكان فى حياتهما أم بعد موتهما ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾.

ثم مع وصية أخرى من وصايا القرآن ﴿ **وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[١].

وفى معناها إجمالا: أوصى الله تعالى الإنسان بوالديه، أى أمره ببرهما، وخاصة الأم التى حملته وَهْنًا على وَهْن أى جهدا على جهد، وضعفا على ضعف، فضعفت للحمل، وللطلق والولادة، ثم هى من بعد ذلك قامت بإرضاعه من بعد وضعه، فى عامين كاملين، لمن أتم منهن

(١) سورة لقمان: [١٤، ١٥].

مدة الرضاعة، ثم قامت على تربيته والعناية به، فسهرت وتعبت، وأما الوالد فهى يربى وينفق ويجاهد، ولذلك فعليك - أيها الابن - بالشكر لله أولا، ولوالديك ثانيا، وهى تبين منزلة بر الوالدين فى الإسلام، حيث جعلت رضا الله فى رضا الوالدين، وسخط الله فى سخط الوالدين، ثم تذكير باليوم الآخر، حيث إلى الله المرجع والمصير، وسيجازيك إن خيرا، وإن شرا.

ثم يبلغ البر بالوالدين أوجه إذ يأمر الله به ولو مع اختلاف الدين، وكان الوالدان مشركين، بل وأمرا الابن بذلك وجاهداه عليه ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ - أى فى الشرك والمعصية، ومع ذلك - ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أى إن حرصا عليك كل الحرص أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فلا تقبل ذلك منهما، وفى نفس الوقت، لا يمنعك ذلك أن تصاحبهما فى الدنيا بعمل المعروف لهما، ورد الجميل إليهما، كما فعلا معك الكثير فى صغرك وشبابك، أن ترد

ذلك بالإحسان إليهما، وهذه الآية بينت أن بر الوالدين ليس خاصا بالوالدين المسلمين فحسب، بل هو يشمل الوالدين وإن كانا كافرين أو مشركين، ولكن من غير موالاة أو محبة، حيث لا يتعدى الأمر المصاحبة بالمعروف ورد الجميل، وأما جانب المحبة والموالاة فكما قال الله تعالى: **﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[1].

كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[2].

---

(١) سورة المجادلة: [٢٢]. (٢) سورة التوبة: [٢٣].

كما قال الله فى هذا الإطار أيضا: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1].

وفى صحيح البخارى عن أسماء قالت: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش ومدتهم، إذ عاهدوا النبى ﷺ مع أبيها، فاستفتيت النبى ﷺ، فقلت: إن أمى قدمت وهى راغبة ـ يعنى فى برى وصلتى، أو هى راغبة عن الإسلام ـ أفأصلها؟ قال: نعم، صلى أمك، وفى رواية أخرى، فانزل الله عز وجل «﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾»[2].

وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال: نزلت فىَّ هذه الآية، كان لى أم وكنت برا بها، فلما أَسْلَمْتُ، قالت: يا سعد ما هذا الذى أراك؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى فيقال يا قاتل أمه،

(١) سورة الممتحنة: [٨]. (٢) رواه البخارى.

قلت: يا أمه لا تفعلي، ففعلت فظلت يوما وليلة حتى بلغ منها الجهد، فقلت لها: يا أماه. تعلمين ـ والله ـ لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا لن أدع ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي أو لا تأكلي، فلما رأت ذلك مني أكلت، فنزلت الآية «﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾[1]».

ومن وصايا القرآن أيضا، قال الله تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[2].

فلقد أمر الله عباده جميعا بالإحسان إلى الوالدين، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق.

وكذلك يقول الله تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ**

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) سورة العنكبوت: [٨].

ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾[1] الآيات.

ورحم الله ابن حجر الهيثمى إذ قال فى هذا المعنى: «أيها المضيع لأوكد الحقوق، المعتاض عن البر بالعقوق، الناسى لما يجب عليه، الغافل عما بين يديه، بر الوالدين عليك دين، وأنت تتعاطاه باتباع الشين، تطلب الجنة بزعمك، وهى تحت أقدام أمك، حملتك فى بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج وكابدت عند وضعك ما يذيب المهج، وأرضعتك من ثديها لبنا، وأطارت لأجلك من عينها وسنا «نوما»، وغسلت بيمينها عنك الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذا، وصيرت حجرها لك مهدا، وأنالتك إحسانا ورفدا، فإن أصابك مرض أو شكاية، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت

(١) سورة الأحقاف: [١٥].

مالهـا للطبيب، ولو خـيرت بين حـياتك ومـوتها، لآثرت حياتك بأعلى صوتها. !!

هذا. . وكم عـاملتهـا بسـوء الخلق مرارا، فـدعت لك بالتوفـيق سرا وجـهارا، فلمـا احتاجت عند الكـبر إليك، جعلتـها من أهون الأشياء علـيك، فشبعتَ وهى جـائعة، ورويتَ وهى ضـائعة، وقـدمت عليهـا أهلك وأولادك فى الإحسان. وقـابلت أياديها عليك بالنسيـان، وصعب لديك أمـرها وهو يسـيـر، وطال عليك عـمرهـا وهو قصـيـر، وهجرتهـا ومالك سواها نصـير. هذا. . ومولاك قـد نهاك عن التأفيف، وعـاتبك فى حقها بعتاب لطيف، سـتعاقب فى دنيـاك بعقـوق البنـين، وفى آخـرتـك بالبعـد عن رب العالمين، يناديك بلسـان التوبيخ والتهـديد «ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد»[1].

وكما وجدنا هذا الاهتمام فى القرآن الكريم ببر الوالدين

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/٥٨،٥٩ .

والإحسان إليهما، فإننا نجد مثل هذا فى سنة النبى ﷺ تأكيدا وتوضيحا.

وكما روى الإمام مسلم فى صحيحه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك»[1] فهذا السائل يعلم أن من ذوى قرابته ورحمه من هو أهل للصحبة ولكنه يريد معرفة مراتب هؤلاء فى الصحبة، وأيهم أحق بها وأولى من الآخر. ومعنى الصحبة والصحابة: المصاحبة والمعاشرة. وقد استدل العلماء بهذا الحديث على تأكد حق الأم على حق الأب، وأن لها من البر ثلاثة أمثال ما للأب وكان ذلك لما تتحمله الأم، وتتعرض له من الضعف والوهن طوال مدة الحمل، ثم ما تعانيه من ألم المخاض والوضع، ثم ما تقوم به من إرضاع الطفل والسهر على راحته لمدة عامين، وهذه الثلاثة تنفرد

(١) رواه مسلم.

بهـا الأم، ثم بعد ذلك تشـارك الأب فى التـربية وحـسن الرعاية والعناية طيلة حـياته. وكم من أم نال من صحـتها الحمل، وكم من الأمـهات من أضر بـهن الوضع، وسبب لهن أمراضـا مزمنة، وأىّ أُمٍّ لَمْ تَسْهَـر الليالى الطوال ولم يلازمها الأرق والسهاد إذا ما بكى طفلها أو أرق أو توعك، فليس بعجـيب من المشرع الحكيم العليم بخفـايا الأمور أن يجـعل هذا الاهتمـام كله بالوالدين، وأن يجـعل للأم من الحقوق أضعاف ما للأب، وأن يخصها بالذكر بعد العموم، كمـا أشار الحق تبـارك وتعالى إلى هذا فى قـوله سبـحانه ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا... ﴾ وقـوله تعـالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ... ﴾.

فقـد ذكر بعد الوصـية بالوالدين مـا تختص به الأم عن الأب تنبيها إلى عظم حقـها، وإيثارها على الأب بالتقديم، فالآيتان إذ ذكرنا الحمل والفصال والوضع والرضاع، فذلك

مما يغفله الصبى فى صغـره، فذَكَّرَه الله تعالى به، ليراه فى حياة الأمهات، أما دور الأب فهو منظور ومعروف. ويؤيد تقديم حق الأم واختصاصها بهذه الأمور الثلاثة حديث عمـرو بن شعيب عن أبيـه عن جده **«أن امـرأة قـالت يا رسول الله: إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء، وثديى له سقاء، وحجرى له حواء، وإن أباه طلقنى وأراد أن ينزعه منى، فقال: أنت أحق به ما لم تنكحى»**[1].

ومما ورد فى السنة أيضـا مـا جـاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: **«سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله»**[2].

فقـدم بر الوالدين على الجـهاد فى سبيل الله الذى هو أكبر الحقوق العامة على الإنسان، وذلك كله يبين أن حق الوالدين على الولد أكبر من جميع حقوق الخلق عليه.

(١) رواه أبو داود والحاكم. (٢) رواه البخارى ومسلم.

وعاطفة البنوة ونعرتها من أقوى غرائز الفطرة، فمن قصر فى بر والديه والإحسان إليهما كان فاسد الفطرة مضيعا للحقوق كلها فلا يُرْجى منه خيرٌ لأحد.

وكذلك جاء فى هذا المعنى ما رواه الإمام مسلم عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذن فى الجهاد، فقال: **«أحى والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد»**[1].

وروى النسائى وأحمد عن طريق معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: **«يا رسول الله، أردت الغزو وجئت لأستشيرك، فقال: هل لك مِنْ أم؟ قال: نعم، قال: الزمها فإن الجنة عند رجليها»**[2] كما روى أبو داود بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ارجع فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما»**[3] وهذا الحديث صريح فى إذنهما فى الجهاد، وقد أفتى العلماء بأنه لا يجوز الجهاد إلا بإذن الوالدين إذا كانا

---

(١) رواه البخارى مسلم وأبو داود. (٣) رواه أبو داود وهو فى صحيح الجامع.
(٢) رواه النسائى وابن ماجة، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

مسلمين، وإذا كان الجهاد فرض كفاية، فهنا يقدم بر الوالدين باعتباره فرض عين، أما إن كان الجهاد فرض عين، أو تعين عليه بأن كان حاضرا فى صف المقاتلين أو دعا الإمام إلى النفير العام فلا يجب عليه الاستئذان.

وقد استدل العلماء بحديث الاستئذان أيضا على تحريم السفر بغير إذن الوالدين، لأن الجهاد إذا منع عند عدم إذنهما مع فضيلته ومنزلته فى الدين، فالسفر المباح أولى، أما السفر للحج.. فإن كان حج الفريضة فلا يتوقف على الإذن، وإن كان تطوعا فيتوقف على استئذانهما أو الحى منهما.

هذا.. وبر الوالدين له أنواع وصور سواء أكان فى حياتهما أو بعد موتهما.

فبرهما فى حياتهما ـ كما سبق أن ذكرت ـ هو الإحسان إليهما والقيام بحقوقهما والتودد إليهما وعدم الإساءة إليهما ولو بكلمة «أف» ـ هذا الصوت الذى يعبر عن الضيق أو الضجر ـ وبعدم نهرهما وبالقول الكريم لهما، وكذلك

بعدم بكائهـما، كمـا فى الحديث عن ابن عـمر رضى الله عنهما قال: جـاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «**جـئت أبايعك على الهـجـرة وتركت أبواى يبكيـان، فقـال: ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[1].

وكذلك بالتأدب معـهما، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه أبصر رجلين، فـقال لأحدهـما: ما هذا منك؟ فـقال: أبى.. فقال أبو هريرة: لا تسمـه باسمه، ولا تمش أمامه، ولا تجلس قبله»[2].

وكذا بالسلام عليهما والدعـاء لهما. فعن ابن مرة مولى عـقيل أن أبا هـريرة كان يسـتـخلفـه مروان، وكـان بذى الحُلَيْفَة، فكانت أمه فـى بيت وهو فى آخر، قال: فإذا أراد أن يخرج، وقف على بابها فقال: «السلام عليك ـ يا أماه ـ ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك ـ يا بنى ـ ورحمة الله وبركاته، فيقـول: رحمك الله كما ربيتنى صغيـرا، فتقول:

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد.

رحمك الله كما بررتنى كبيرا، ثم إذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك»[1].

وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: «ألا تقوم إلى خدمتها عن كسل، وقيل: ألا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر إليهما شذرا، ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر أو باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما إذا ماتا»[2].

وهكذا ـ هذا وغيره وأمثاله ـ من أنواع البر الأدبى، ثم يأتى دور البر المادى كذلك ،فللوالدان على الولد حقوق مادية ـ بخلاف المعنوية ـ صرح بها النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة. ففى الحديث عن عبد الله المحاربى ـ رضى الله عنه ـ قال: دخلنا المدينة، فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: **«يا أيها الناس: يد المعطى العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك**

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد. (٢) تفسير أبى السعود ٣/٢١٢ .

أدناك»[1]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم عن النبى ﷺ أنه قال: **«إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم، فكلوه هنيئا مريئا»**[2].

وفى الحديث المشهور أيضا **«أنت ومالك لأبيك»**[3] وفى رواية أخرى **«الولد من كسب الوالد»**[4] وجاء فى الحديث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»**[5] وعن عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ يستعدى على والده فقال: إنه أخذ مالى، فقال له رسول الله ﷺ: **«أما علمت أنك ومالك من كسب أبيك؟!»**[6].

هذا وبخلاف صور البر المادية والمعنوية التى تكون فى الحياة، فإن بر الوالدين لا ينقطع بالموت بل هو متصل بعد

(١) أخرجه النسائى.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه أبو داود فى صحيح الجامع وارواء الغليل.

(٤) صحيح الجامع.

(٥) رواه مسلم.

(٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة.

موت أحـدهما أو كليـهمـا، وذلك على نحو مـا ورد فى الحديث الذى رواه ابن ماجة وابن حبان: أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: **«نعم.. الصلاة عليهما ـ بمعنى الدعاء لهـما ـ والاستـغفار لهمـا، وإنفاذ عهـدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»**.

زاد ابن حبان فى صحيحه، قال الرجل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه، قال: **«ما عمل به»**(1).

والصلاة عليهما ـ كما علمت ـ بمعنى الدعاء لهما، كما قال الله تعالى ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾(2) وكما فى دعاء سـيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** ﴾(3) وفى دعـاء سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ **رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات...** ﴾(4) هذا ولئن كـانت

(1) رواه ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه.
(2) سورة الإسراء: [24].
(3) سورة إبراهيم: [41].
(4) سورة نوح: [28].

الصلاة المفروضة ترتبط بصاحبها، ولا يجزئ إنسان أن يؤديها عنه غيره، فإن الرجل يجزئه أن يزكى عنه غيره، وأن يصوم عنه، وأن يحج عنه ويعتمر عنه، وذلك فى حياته وبعد مماته، فلا يغفل الإنسان كثيرا من الطاعات التى يمكن أن ينويها عن والديه أو يهبهما ثوابها. لأن ذلك من سعى الإنسان نفسه المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾[1] فالولد من سعى والديه، ويرفع الوالدان فى الجنة درجات بسبب استغفار الولد لهما أو فعل طاعة لهما أو نحو ذلك مما صرح الشرع به وأجازه بدون تعد فى ذلك أو ابتداع.

وجاء فى السنة بيان لهذه الحقوق التى للوالدين بعد الموت، فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه** »[2].

وهذا ابن عمر - رضى الله عنهما - يطبق هذا على نفسه، حيث خرج إلى مكة، وكان له حمار يتروح عليه إذا

(١) سورة النجم: [٣٩]. (٢) رواه مسلم.

مَلَّ ركوب الراحلة - يركب عليه مرة وعلى الراحلة مرة أخرى - وعمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يوما على ذلك الحمار، إذ مر به أعرابى فقال: ألست ابن فلان بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار، وقال: اركب هذا، والعمامة قال: اشدد بها على رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابى حمارًا كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى**» وأن أباه كان صديقا لعمر رضى الله عنهم[١].

وورد - بسند حسن - «**من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده**»[٢].

هذا. . وبر الوالدين له جزاؤه فى الدنيا والآخرة، فهو سبب كل خير وبركة ورضا واستجابة للدعاء ودخول للجنة، بفضل الله تعالى، وبيان ذلك فى سنة النبى ﷺ

(١) رواه مسلم. (٢) الترغيب والترهيب.

حين قال: «**رضا الرب فى رضى الوالدين، وسخطه فى سخطهما**»[1].

وقال ﷺ «**من سره أن يمد له فى عمره - يبارك له فيه - ويزاد فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه**»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر**»[3] وفى الحديث «**بروا آباءكم تبركم أبناؤكم**»[4].

وقال ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم**»[5] وفى رواية «**ثلاث دعوات مستجابات لا ترد: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر**»[6]. كما أن دعاء الولد البار لوالديه مستجاب، وبر الوالدين من الأعمال

---

(١) صحيح الجامع، وصحيح الترغيب والترهيب.
(٢) رواه أحمد فى الترغيب والترهيب.
(٣) أخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم.
(٤) رواه الحاكم.
(٥) صحيح الجامع.
(٦) صحيح الجامع.

الصالحة التى يدعو الإنسان بهـا ربه ويتوسل بها إليه، كما فى حديث الثلاثة الذين آواهم الغار . . .»[1].

وبر الوالدين يكون كفارة لكبائر الذنوب، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قـال: أتى النبى ﷺ رجل فقال: «**إنـى أذنبت ذنبا عظيمـا، فهل لى من توبة؟ قال: هل لك من أم؟ قال: لا، قال: هل لك من خالة؟ قـال: نعم، قال: فبرها**»[2] وقال ابن عـباس رضى الله عنهـما: « إنى لا أعلم عـملا أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة»[3].

وبر الوالدين طريـق إلى الجنة، فـعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجـنة، فـإن شئت فـأضـع هـذا البـاب أو احـفـظـه**»[4] وبالتـالى يكون بر الأم أدنـى الطرق إلى رضوان الله وجنته.

---

(١) رواه البخارى بتمامه ومسلم.
(٢) رواه الترمذى.
(٣) رواه البيهقى.
(٤) رواه الترمذى وابن ماجة.

وأخـرج الإمام مـسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قـال رسول الله ﷺ «**رغم أنف، ثم رغـم أنف، ثم رغم أنف ـ أى لصق بـالرغـام وهو التـراب ـ قـيل: من يا رسـول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبـر ـ أحدهمـا أو كلاهما ـ ثم لم يدخل الجنة**»[1].

وعن جابـر بن سمرة رضى الله عـنه قال: صعـد النبى ﷺ المنبر فـقال: «**آمين، آمين، آمين، ثم قال: أتانى جـبريل عليه السـلام فقـال: يا محمـد، من أدرك أحد أبويه فـمات فـدخل النار فأبعـده الله فـقل آمين، فقـلت: آمين، فقـال: يا محـمد من أدرك شهـر رمضان فـمات فلم يغفـر له فأدخل النار فأبعده الله، فقل: آمـين، فقلت، آمين، قال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فـمات فدخل النار فأبعـده الله، فقل: آمين، فقلت: آمين**»[2].

وسأل ابن عمر رضى الله عنهمـا رجلا، فقال: أتفرق ـ تخاف ـ من النار، وتحـب أن تدخل الجنة؟ قال: أى والله،

(١) رواه مسلم. (٢) رواه ابن حبان والطبراني باسناد حسن.

قال: أحى والداك؟ قال: عندى أمى، قال: فوالله لو ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر»[1].

وكما أمر الله تعالى ببر الوالدين ـ على نحو ما علمت ـ فقد نهى عن مقابل ذلك، وهو العقوق.

وجمعا بين الترغيب والترهيب، تجدر الإشارة إلى حديث القرآن والسنة عن العقوق، وقد عرف العلماء العقوق، فهو لغة من العق، وهو القطع، ومنه العقيقة: الذبيحة تقطع أوداجها، والمراد به شرعا: صدور ما يتأذى به الوالدان من ولدهما من قول أو فعل، إلا فى شرك أو معصية، وهو أيضا ، عصيان الوالدين، وعدم تأدية حقوقهما، أو التسبب فى غضبهما أو بكائهما أو شتمهما والضن فى الإنفاق عليهما، ويتحقق الإيذاء ولو بكلمة «أف» أو بحدة النظر إليهما.

والله عز وجل كما أمر بالإحسان بالوالدين، فقد حرم

(١) رواه الطبرانى.

العقوق، وتوعد صاحبه، بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾[1] كما أن عصيان الوالدين وعقوقهما هو من عصيان رب العالمين الذى أوصى ببرهما ونهى عن عقوقهما فى عدة آيات، ومن ثم فعاق والديه مندرج فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

وها هو النبى ﷺ يقول: **«لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك...»**[3].

ويقول ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثا) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»**[4].

---

(١) سورة الأحقاف: [١٧].
(٢) سورة النساء: [١٤].
(٣) رواه أحمد وغيره.
(٤) رواه ومسلم والترمذى.

ومن الكبـائر ـ قوله ﷺ: «**إن من الكبائـر شتم الرجل والديه، قـالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قـال: نعم، يسب الرجل أبا الرجل فـيسب أبـاه، ويسب أمه فـيسب أمـه**»[1] وقال ابن عمر رضى الله عنهما «**من تسبب فى بكاء والديه فقد عقهما**»[2] فبكاء الوالدين من العقوق ومن الكبائر، بل حـدة النظر إلى الوالدين من العـقـوق، فمن حـد الطرف لوالديه فقد عقهما[3]، وكل ما أمر الله به من البر إذا تركه الولد أو خالفه يكون عاقا لوالديه.

وعليه أن يتـحمل تلك العقوبات الدنيـوية والأخروية، ففى الدنيا تعجل له العقوبة، كما جاء فى الحديث: «**كـل الذنوب يؤخـر الله منها ما شـاء إلى يوم القيـامة إلا عـقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبـه فى الحياة قبل الممات**»[4] وفى الآخرة حرمان من الجنة ـ والعياذ بالله تعالى ـ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود.

(٢) أخرجه الخطيب فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع وفيه ضعف، قاله الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٣٥٣).

(٣) كما جاء فى الآثار.

(٤) رواه الحاكم.

قـال ﷺ: «ثلاثة حرم الله تـبارك وتعالى عليـهم الجنة: مـدمن خـمـر، والعـاق، والديوث الذى يقـر الخبث فى أهلـه»[1] وقال ﷺ أيـضا: «ثلاثة لا ينظر الله إليـهم يوم القيامة: العـاق لوالديه ومدمن الخمر، والمنان عطاءه، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العـاق لوالديـه، والديوث، والرجلة ـ أى المتشبـهة بالرجال»[2] هذا وكما علمـت أن عقوق الوالدين من أكبـر الكبائر، فـهو كـذلك من الموبقات والعـياذ بالله تعالى، كـما قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله، وعـقـوق الوالـدين، وقـتل النفس المؤمنـة بغـيـر حق، والسحر، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، والتولى يوم الزحف»[3] أو كما قال ﷺ فى الحديث «الكبائر: الإشراك بالله، وعـقـوق الـوالدين، وقـتل الـنفس، والـيـمين الغموس»[4].

---

(1) رواه أحمد وغيره.

(2) رواه النسائى والبزار.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه البخارى.

وعن أنس رضى الله عنه قال: ذكر عند رسول الله ﷺ الكبائر فقال: «**الشرك بالله، وعقوق الوالدين**»[1].

وفى الحديث أيضا «**إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات...**»[2] وخص الأمهات بالذات لقبح أذاهن وشدة العقاب للعاق لهن، فكما أنهن فى البر يضاعفن عن الأباء، فعقوقهن أشنع من عقوق الآباء، فافطنوا لذلك يا معشر الأبناء، واتقوا الله فى الأمهات والآباء، وأطيعوا أمر رب الأرض والسماء، واتبعوا كلام أمير الأنبياء.

* * *

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى. (٢) رواه مسلم.

الوصية الثالثة

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[1]

لما وصى الله تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك بالإحسان إلى الأبناء والأحفاد، وهكذا يحدثنا الله عز وجل عن رابطة الأسرة، بأجيالها المتلاحقة، تقوم بعد الرابطة فى الله، ووحدة الاتجاه، ولقد علم الله سبحانه أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء، فأوصى الأبناء بالآباء ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1]، ثم أوصى الآباء بالأبناء فى أهم حق من حقوقهم، وهو بقاء حياتهم ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم ﴾[1] فكانت هذه وتلك هى الوصية بالأسرة، وقد ربطها الله بألوهيته الواحدة، وربوبيته المتفردة، وبين لهم أنه هو الذى يكفل الرزق لهم، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرهما، ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم، ولا يخافوا الفقر والحاجة، فالله يرزقهم جميعًا.

---

(1) سورة الأنعام: [١٥١].

ولذلك جاء هذا المعنى فى هذه الآية ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1] ومثله فى سورة الإسراء ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[2] ومع التشابه اللفظى بين الآيتين إلا أننا نجد أن كل آية تخدم جانبًا لم تخدمه الأخرى فآية تحذر من قتل الأولاد من فقر واقع، وتبين أنه الولد الصغير تابع لوالده فى الرزق الحال الثابت.

والأخرى تحذر من قتل الأولاد من فقر متوقع، وتبين أن الولد سيأتى برزقه، وسيرزق الوالد برزقه مستقبلاً.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم﴾ أى وثالث ما أتلوه عليكم مما أوصاكم به ربكم، ألا تقتلوا أولادكم الصغار من فقر وقع بكم لئلا تروهم جياعًا فى جحورهم، فإنه هو الذى يرزقكم وإياهم.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم﴾ فى هذه الوصية ينهى الله عز وجل عن قتل الأولاد، أيا كان نوع القتل أو كانت طريقته، وأيا كان سببه أو كانت علته.

---

(١) سورة الأنعام: [١٥١].
(٢) سورة الإسراء: [٣١].

فلا تقتلوا أولادكم الذكور خشية الفقر، ولا تقتلوا أولادكم الإناث خشية العار، ولا تقتلوا أولادكم بإسقاط الحمل، وهو ما يسمى «بالإجهاض»، ولا تقتلوا أولادكم بتنفيذ مخططات أعدائكم باسم تحديد النسل، أو تنظيم الأسرة!!.

ولا تقتلوا أولادكم بسبب الأزمات الاقتصادية، ولا بسبب عدم القدرة على التربية، ولا تقتلوهم وتمنعوهم حق الحياة بسبب الانفجار السكانى، ولا بسبب ضيق البيوت، ولا تقتلوهم سفهًا بغير علم، حفاظًا على جمال الأم، ولا بسبب ضيق الرزق أو قلة ذات اليد، ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم..﴾ هذه الوصية نهى للمشركين وغيرهم ممن كانوا يقتلون أولادهم أو يأدون بناتهم، كما نعى الله عز وجل عليهم ذلك فى قوله سبحانه ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1].

---

(1) سورة الأنعام: [١٤٠].

وفيها أنكر الله تعالى على مشركى العرب هذين الأمرين الفظيعين الذين نقمهما عليهم فى هذه الآية، وحكمت عليهم حكمًا حقًا وعدلاً، وهو أنهم قد خسروا بقتل أولادهم وبوأد بناتهم خسرانًا عظيمًا.

ـ دل عليه حذف مفعول «خسروا» الدال على العموم فى بابه ليتروى السامع فيه ـ وذلك أن قتل الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يرجى من فوائدهم من العزة والنصر، والبر والصلة والفخر والترفيه والسرور، كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة الأبوة ورأفتها، وما يتبع ذلك من القسوة والغلظة والشراسة وغير ذلك من مساوئ الأخلاق التى يضيق بها العيش فى الدنيا، ويترتب عليها العقاب فى الآخرة، ولذلك علل هذا الجرم بسفه النفس وهو اضطرابها وحماقتها، وبالجهل أى عدم العلم بما ينفع ويضر، وما يحسن ويقبح.

ثم حدثتنا الآية عن المنكر الثانى ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ وهى عامة فى الولد وغيره، ثم ذيلت بتلك الخاتمة، وهذا الحكم ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وكـذلك أنكر عليـهم ربنا تلك الـفعلـة النكراء، والتى تتنافى مع أقل مـعانى الآدميـة أو الكرامة الإنسـانية فـقال تعـالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ..﴾[1] والشركاء هنا قـيل: هم سـدنة الآلهـة وخدمـهـا، وقـيل: بل هم الشياطين الذين يوسوسـون لهم ما يزين ذلك فى أنفسهم، وإنما سُمى كلاً منها شريكًا لأنه يطاع ويدان له فيما لا يطاع فيه إلا الله عز وجل.

وقـد أخـذ هذا التـزيين وجـوها وصـورًا فى القـديم والحديث، جـعلت أناسًا يقدمـون على قتل أولادهم ومن ذلك ما عللته الآية هنا ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ أو آية الإسراء ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ وهو اتقاء الفقر الواقع أو المتـوقـع، وهذا الذى حـذر الله منه، فى هـاتين الآيتين، وضمن الرزق فى الحالتين، فـقدم فى الأولى رزق الوالدين على رزق الأولاد، لأن الولد الصغير تابع لوالده فى رزقه،

(١) سورة الأنعام: [١٣٧].

وقدم فى الثانية رزق الأولاد على رزق الوالدين، لتعلقه بالمستقبل، وكثيرًا ما يعجز فيه الآباء عن كسب الرزق ويحتاجون إلى انفاق أولادهم عليهم.

كما قدم رزق الوالدين ـ فى الأولى ـ لأن الاملاق ـ وهو الفقر ـ قد وقع فعلاً. فلما كان الفقر حاصلاً قال: نحن نرزقكم وإياهم، لأنه الأهم هنا.

وقدم ـ فى الثانية ـ رزق الأولاد على رزق الوالدين، لأنه لما كان الفقر متوقعًا خشية مجيء الأولاد، نهى الله عن قتلهم خشية الفقر فى المستقبل، وضمن لهم أنهم سيأتون برزقهم، وسيرزقون معهم.

فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أى لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله.

وقد أكد الله تعالى هذا المعنى فى آيات كثيرة، منها ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[1] كما قال تعالى أيضًا:

(١) سورة هود: [٦].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(1).

فهل بعد هذه الضمانات الربانية التى لا تقبل المساومة أو الشك يجوز لأحد أن يقتل أولاده تحت أى مسمى، أو لأى سبب؟!.

والوجه الثانى من وجوه تزيين القتل: اتقاء العار وهو خاص بوأد البنات، أى دفنهن أحياء، خشية أن يكن سببًا للعار إذا كبرن، فهم يصورون البنت لوالدها الجبار أنها ترتكب الفاحشة إذا كبرت، أو أن تقترن بزوج دونه فى الشرف والكرامة فتلحقه الخسة، أو تسبى فى القتال.

كما أخرج البخارى وغيره، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ... ﴾(2) وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فيمن كان يئد

(1) سورة العنكبوت: [٦٠].

(2) رواه البخارى.

البنات من مضر وربيعة، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تلدين جارية - أى بنتا - وتستحيين «أى تبقين» أخرى، فإذا كانت الجارية التى توئد، غدا من عند أهله أو راح، وقال: أنت على كأمى - أى محرمة - إن رجعت إليك ولم تأديها، فترسل إلى نسوتها فيحفرن لها حفرة، فيتداولنها بينهن، فإذا بصرن به مقبلاً دسسنها فى حفرتها وسوين عليها التراب - أى وهى حية - وهذا هو الوأد»[1]، الذى حرمه الله تعالى بقوله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[2] ونعى عليه بقوله ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3] .

فهذا من صنع أهل الجاهلية. كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، ويغذى كلبه.

---

(١) أخرجه ابن المنذر.

(٢) سورة التكوير: [٨، ٩].

(٣) سورة النحل: [٥٨، ٥٩].

وهناك وجه ثالث من وجوه التزيين عند المشركين، أنهم كانوا يتـدينون بنحر أولادهم قـربانًا للآلهة، بنذر أو بغـير نذر، وكـان الرجل فى الجاهليـة ينذر لئن ولد له كـذا من الولد، لينحرن أحدهم، كما حلف «عبد المطلب» وأراد أن يذبح ولده للوفاء بنذره، واقتـرع، فكانت القرعة على ابنه «عبـد الله» والد رسول الله ﷺ، ثم فـداه بمائة من الإبل، وخبره معـروف، وقصته فى السيرة مـسطرة، وقد جاء فى الحـديث أن النبى ﷺ قـيل له: «يا ابن الذبيـحين» فـأقـر ذلك، وقد علم أن الذبيح الأول: إسمـاعيل عليه السلام، والثانى: أبوه «عبد الله بن عبد المطلب».

هذا. . ولولا الشرك الذى يفسـد العقول لما راجت هذه الوسوسة عندهم، ولذلك عـبرت الآية بوصف «المشركين» فى مـقام الاضـمار، لأن الكلام الـسابق فـيهم، وسـمت المزينين لهم ذلك من شـيـاطين الإنس كالسـدنة، أو الجن «شـركـاء»، وإن لم يسـمـوهم آلهـة أو شـركـاء، لأنهم أطاعوهم طـاعة إذعان دينى فى الـتحليل والتـحريم، وهو

خـاص بالرب المعـبود، وفـى هذا جاء قـول الله تعـالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. ﴾[1] أى أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال[2].

به ولذلك رأينا فـى عصـرنا وجـهًـا رابعًـا من وجـوه التزيين، وهو ما يسمى بتحديد النسل أو تنظيم الأسرة، أو غيـر ذلك من الشـعارات واللافـتات، تلك التى يحلونـها مرة، ويحرمونها أخرى، ويصاب الإنسان بالدهشة إذا علم أن واحـدًا ممن يحـسبـون على علمـاء الدين، قـيل له: يا فضـيلة الشيـخ: عندك برنامج فى «التلفزيون» عن تحـديد النسل، فقـال: ماذا تريدون، حله أم تحريمه، حتى أسـتعد وأجهز نفسى!!

إن أناسا كثيرين ـ فى الجـاهلية المعاصرة ـ قتلوا أولادهم تحت هذه الشـعـارات وتلك الـرايات، وعلمـاء ضـلالة أضلوهم، وزينوا لهم الحـرام، وأفـتوهم بأن مـا يفـعلونه حلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سورة التوبة: [٣١].

(٢) تفسير المنار.

فهناك من زعم أن الانفجار السكانى - كما يقولون - فى الدولة، أو على مستوى العالم، يستلزم تحديد النسل، وإلا فإن هذا الازدياد المستمر، والذى لا يتوائم مع نسبة الطاقات والامكانات، سيؤدى حتمًا إلى كارثة جوع وفقر تغطى العالم، وهذا كما يكون على مستوى الدول يكون على مستوى الأفراد.

وأبادر فأقول: إن هذا الكلام جد خطير، لأنه يرتبط بقضية الرزق، والتى لا يجوز أن يشك فيها المسلم أبدا، فإن الله تعالى مذ خلق الأرض، قدر فيها أقواتها، وقبل أن يخلق الإنسان، هيأ الله له الأسباب كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ.. ﴾[1] .

وقد ضمن الله عز وجل رزق كل دابة، كما قال: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

(١) سورة الأعراف: [١٠، ١١].

وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[1] كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2] وقد أقسم سبحانه بذاته على ذلك، فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[3] فالقول بجواز تنظيم النسل أو تحديده، إذا كان لسبب اقتصادى فإنه مرفوض شرعًا، ومردود شكلاً ومضمونًا، ذلك أن الشك فى قضية الرزق يرتبط بالعقيدة الإسلامية، وعدم الإيمان بالقدر.

فربط انخفاض مستوى المعيشة بزيادة السكان مرفوض بصريح آيات القرآن، التى قررت أن كل نسمة خلقها الله تعالى قد تكفل برزقها، والآية التى بين أيدينا تؤكد ذلك.

وما الفقر أو الإملاق إلا بسبب عدم الأخذ بالأسباب المشروعة فى كشف الأرزاق المكفولة، فى باطن الأرض وما يخرج منها، أو ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، أو عدم

(١) سورة هود: [٦].
(٢) سورة العنكبوت: [٦٠].
(٣) سورة الذاريات: [٢٢،٢٣].

معرفة الأسباب الحقيقية للفقر، والأخذ فى علاجها، أو لعل الفقر يقع بسبب من الأسباب المعنوية، فإنه لا يضيق الرزق ولا تنزع البركة إلا بالذنوب والإعراض عن منهج الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(1) .

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(2) وغير ذلك من الآيات.

إن دعوى تحديد النسل للعامل الاقتصادى مرفوضة تمامًا بأدلة عقلية وأبحاث علمية أيضًا، وذلك لأسباب منها:

ـ أن الثروة البشرية ـ فيما يقرره علماء الاقتصاد ـ عنصر أساسى للتنمية وزيادة الانتاج التى يلزم للاستفادة منها سلامة استغلالها بحسن توجيهها.

---

(1) سورة النحل: [112].   (2) سورة الأعراف: [96].

فالقول بزيادة الانتاج يلزم معها الحد فى كثافة السكان، يتنافى مع أبسط قواعد الاقتصاد، لسبب بسيط وهو أن العنصر البشرى عنصر من أهم عناصر الإنتاج، فكيف يأتى الانتاج عند الحد من أهم العناصر الرئيسية له؟! إلا أن يكون الخطأ فى توزيع العمالة على مواقع الإنتاج بما يؤدى إلى خلخلة حتمية، أو بطالة تلك العمالة، ومع عدم معرفة موطن الداء، يؤدى إلى الفقر الدائم الذى يزداد بازدياد المعالجة غير الصحيحة له، ومثل هذه الدعوة وما يماثلها من نداءات «شد الأحزمة على البطون».

فالداء نراه مجسمًا فى عدم النظام وعدم استغلال الكفاءات وتوزيعها فى أمكنتها المناسبة، أو العكس من ذلك، ولذا رأينا الإفراط فى تشغيل العمالة فى غير احتياج لها، الأمر الذى ترتب عليه إلى جانب حسناته نتائج أبرزها:

١ ـ أن تعطلت الطاقات فى صورة بطالة مقنعة.

٢ ـ تحددت المرتبات والمهايا بصورة غير مجزية.

٣ ـ ضاعت الابتكارات وهربت الكفاءات، ومن ثم فإن نظام العمالة والتشغيل فى بلادنا لم يحقق الكفاءة الانتاجية، وبالتالى العدالة الإجتماعية، وذلك هو موطن الداء وأس البلاء، فليته ينظر فيه بدلاً من وضع الأشياء فى غير موضعها.

ـ سوء التخطيط العمرانى أو الصناعى أو الزراعى، فهل وجود تلك الصحارى الشاسعة فى بلادنا يستلزم كثرة من البشر أم الحد منها والعمل على تقليلها؟

وهل كثرة الإنتاج المترتب على كثرة المصانع والمتاجر يحتاج إلى زيادة فى العمالة أم العكس؟

ـ أليست هذه الكثرة البشرية ـ التى يراد تحديدها ـ هى التى قامت بالبناء والتعمير فى البلاد العربية وغيرها، التى استحوذت على تلك الخبرات المصرية وأحسنت استغلالها؛ مما يبين أهمية تلك الثروة؟

ـ لقد قرر علماء وباحثون أنه لا توجد أزمة اقتصادية أو انفجار سكانى، وإنما سوء تخطيط وتوزيع، وعلى افتراض

وجـود أزمة اقـتصـادية أو فـقر، فلمـاذا نلجـأ إلى تقليل الأولاد، ولا نلجأ إلي تكثير الانتـاج واستغلال الكفاءات؟ وإذا وجـدت أزمات فى العـالم، فلم تحل أزمة العـالم من أبناء المسلمين فحسب؟!!

* وهناك من زعم جـواز تحـديد النسل إذا كـانت المرأة ضعيفـة، أو يخشى على صحتها من كـثرة الحمل!! كيف وقد قال تعالى: ﴿ووَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ..﴾[1]؟

ـ وأعـجب منه من قـال: إذا كـانت المرأة تخـشى على جمالها، وذبول وجهها، جاز لها أن تحدد نسلها!!

ـ ومن قال: إذا كـان هناك مرض مـعدٍ فى الزوجين أو أحدهمـا!!، وهذا لا يترتب عليه تحـديد النسل، على قدر ما هو مطلوب منع الزواج من البداية، إن أمكن.

* وهناك من قـاس تحديد النـسل على أمر العـزل الذى كان مـعروفـا فى عهـد الرسول ﷺ، والعزل مـعناه: منع

(١) سورة لقمان: [١٤].

التقاء المادة التناسلية من الزوج بالمادة التناسلية من الزوجة، وذلك بأن يعمد الزوج عند أداء العملية الجنسية إلى قذف هذه المادة التناسلية خارج فرج الزوجة عند الإحساس بنزولها، لئلا تحمل المرأة. مستدلين فى ذلك بأقوال العلماء بجواز العزل بشرط أن توافق الزوجة الحرة على ذلك، لأنها شريكة فى المعاشرة الزوجية، نقول: إن العزل وقد وردت أحاديث صريحة بجوازه، إنما هو استثناء من الأصل إذا دعت إليه المصلحة الراجحة، فهو نوع من الرخصة الشرعية لمصلحة راجحة اقتضتها الضرورة، وقد علم أن لكل قاعدة شرعية استثناءًا، ولكل عزيمة رخصة، وقد جاء الإسلام بتحقيق مصالح الناس، لا لإفسادها.

إن العزل يكون مباحًا إذا دعا إليه داع، وهذا الداعى الذى عبر عنه الفقهاء بأن يقع الضرر، أو لرفع الحرج، أو حفظ النفس، وقد قال تعالى: ﴿ ..وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.. ﴾[1] كما قال تعالى: ﴿ ..يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

(١) سورة الحج: [٧٨].

الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ..﴾[1] كذا قال: ﴿..وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ..﴾[2] .

هذا.. وأحاديث العزل فيها الصحيح والضعيف، والصحيح منها فيه النهى فى بعضها، والإباحة فى بعضها، ومن ثم فقد اختلف فيها، هل أحاديث التحريم ناسخة للإباحة، أم أحاديث الإباحة ناسخة للتحريم؟.

وذلك على قولين، ترجيح أحدهما على الآخر، فيه كلفة ومشقة، لأنه من جنس الخلاف المعتبر، وعلى القول بترجيح الإباحة على التحريم، لابد وأن تكون الإباحة لسبب صحيح، وغاية مشروعة، فلو كان العزل ـ على فرض إباحته ـ بنية فاسدة شرعًا يكون هذا العزل حرامًا، كأن يكون لإذلال الزوجة الحرة مثلاً، أو خشية الفقر، لأن مثل هذا المقصد ليس له معنى سوى عدم التوكل على الله، فوق ما فيه من سوء الظن بأن الرزق مكفول من الخالق الرازق.

---

(١) سورة البقرة: [١٨٥].
(٢) سورة البقرة: [١٩٥].

وعلى هذا، فـإن جوز العلمـاء العزل، فـما ينبـغى أن يجوزوه بـسبب الخوف مـن الإملاق، أو نزول الفـقر، أو نحو ذلك، وذلك لأن الوسيلة ينبـغى ألا تبرر الغاية، تمامًا كما أن الغاية لا تبرر الوسيلة.

فالداعين للتحديد بمقولة أن الضـرورة أباحته، مستندين إلى أحاديث إباحـة العزل، قد خلطوا بـين المسائل خلطًا، كان الأحرى عـدم الوقوع فيـه، ذلك بأنهم نظروا للوسيلة دون الغاية، ونحن نختلف علـى الغاية لا الوسيلة، إذ أننا نتساءل: ما الغاية من ذلك العزل؟ الذى هو مبنى على النية التى هى ركن أسـاسى فى سـلامة كل الأعـمال أو عـدم سلامتها.

وإذ نقول بجواز العزل لضرورة شرعية مع نية صحيحة، كحـالة المرض، أو الخوف على الرضيع، فـإن هذا قد ورد فى معنى الحـديث ما يقطع بعدم لزومه حـتى فى مثل هذه الحالة، لأنه غير منتـج لأثره، لأن الرسول ﷺ قد قرر فى حديثه **«ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة»**.

فهذا يبين أن هذه الوسيلة قد لا تؤدى إلى تحقيق الغاية، إذا كان الأمر مقدرًا؛ مع الاعتقاد بأنه لا حرمة على فاعله.

جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى سعيد، قال: أصبنا سبيًا فكنا نعزل، فسألنا رسول الله ﷺ فقال: **«وإنكم لتفعلون، قالها ثلاثًا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة»**.

وفى صحيح البخارى ومسلم أيضًا عن جابر قال: **«كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ، والقرآن ينزل»**.

وفى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: **«كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا، ولو كان شيئًا ينهى عنه لنهانا القرآن»**.

وفى صحيح مسلم أيضًا عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: **«إن لى جارية هى خادمتنا وساقيتنا تسقى النخيل، وأنا أطوف عليها - أعاشرها معاشرة مشروعة - وأكره أن تحمل، فقال النبى ﷺ: «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدره الله لها، فليس للرجل إلا**

ما شاء الله، ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال: إن الجارية قد حملت، فقال النبى قد قلت سيأتيها ما قدر لها».

فهذه أحاديث العزل ـ وغيرها ـ كما رأيت ـ وقد وقع الخلاف فيما صح منها، هل هى ناسخة أم منسوخة، كما وقع الخلاف فى فهمها فى مثل «لا عليكم ألا تفعلوا، فإنما هو القدر» هل يراد منه: ليس عليكم جناح فى ألا تفعلوا، أم يراد منه النهى والزجر عن العزل؟ وقد ورد «إذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء» كما ورد أيضًا فى العزل «ذلك الوأد الخفى» وقد يستدل بالآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾ على منع العزل، لأن الوأد يرفع الموجود والنسل، والعزل منع أصل النسل فتشابها، إلا أن قتل النفس أعظم وزرا، وأقبح فعلا، ولذلك قال بعض علمائنا: إنه يفهم من قوله عليه الصلاة والسلام فى العزل «ذلك الوأد الخفى» الكراهة لا التحريم، وبه قال جماعة من الصحابة وغيرهم. قاله القرطبى[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٧ صـ١٣٢ بتصرف، ط دار الكتاب العربى للطباعة والنشر.

فهذا العزل، الذى اختلف فيه العلماء، وكثر فيه الجدل، حتى أصبح من قبيل الأدلة المحتملة، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال، بطل به الاستدلال.

فكان الواجب علينا ارجاع هذا الأمر إلى مشيئة الله وحده ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ..﴾[1] وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا..﴾[2].

فالله هو الذى ينقل الإنسان من عالم الأرواح إلى عالم الأرحام بمشيئة، وليس بإرادة الإنسان عند وقوع الجماع الذى يحدث فيه التقاء نطفة الرجل بنطفة المرأة مرات ومرات، ومع ذلك لا يحدث الحمل - بل ولا يعرف متى كان - وإنما مرد ذلك لمشيئة الله وحده، وإرادته فى العطاء والمنع، فماذا أجدى المنع، مع أن الخير فى غيره؟ وقد قال تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل

(١) سورة الإنسان: [٣٠]. (٢) سورة الشورى: [٤٩، ٥٠].

السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا . .﴾[1] كما قال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾[2] .

وقال ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[3] .

ومن هنا نصل إلى الخلاصة فى تلك القضية.

ـ بأن الإسلام يرفض تحديد النسل، ويحرمه تحريمًا قاطعًا، إلا فى الحالات النادرة، كأن توجد امرأة مريضة بمرض معين، بحيث لو حملت مع وجوده أودى ذلك بحياتها، وقد تم معرفة ذلك بإخبار طبيب مسلم ثقة أو بالتجربة، أو باليقين، فإنه فى مثل هذه الحالة وجب منع الحمل، للحفاظ على حياة الأم، فإن الابقاء عليها أولى من الابقاء على النسل، سيما وأنه لم يحدث الحمل بعد.

(١) سورة نوح: [١٠ـ١٣]. (٢) سورة الواقعة: [٥٨، ٥٩].

(٣) رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١٧٣/٦) أخرجه أحمد (١٥٨/٣) وابن حبان (٤٠٥٦ . ٤٠٢٨) وأبو داود (٢٠٥٠) والنسائى (٦٥/٦).

ـ أمـا تنظيم النسل، فـإنه وإن كان يخـتلف عن تحـديد النسل، لكنه استخدم بمعناه، من قـبيل التلاعب بالألفاظ، فوقع الخلط بين كلمة تحديد النسل، وتنظيم النسل، وتنظيم الأسرة، إلى آخر هذه الشعارات.

وذلك لأغراض خبيثة ونوايا سـيئة، تكون خدمة لأعداء الإسلام، أكثر من خدمة المجتمعات المسلمة.

ـ لا يكون تحديد النسل أو تنظيمه بسبب عامل اقتصادى كضيق الرزق، أو وقـوع الفقر أو خشـيته، ولا يكون ذلك لمطلب جمـاهيرى، أو لمصلحة عامـة للدولة، أو عند عدد محدد من الأولاد.

ـ إن تنظيم النسل من قبيل الضـرورات، والاستثناءات، التى لا تأخـذ الحكم العام، بل الحكم العـام هو الحـرمة، ولكن لكل قاعدة استثناءات، حـسب الضرورات الشرعية، فإن وجدت هذه الضرورة جاز ما يسمى بالتنظيم، أو تأخير الحمل، حتى ينتهى ذلك بانتهاء سببه الشرعى، ومن ذلك: مرض المرأة، بحـيث يترتب على حـملها زيادة مرضـها أو

تأخر شفائها، فإنه يجوز لها تأخير الحمل بوسيلة صحيحة إلى أن تبرأ من مرضها.

ـ وإذا كانت المرأة يتتابع عليها الحمل، بحيث لا تستطيع أن توفى الرضيع حقه فى الرضاعة، إلا وقد حملت حملاً آخر، يتغير معه تركيب اللبن، وتزداد معه وهنا، ويضر ذلك بالطفل الأول حيث لم يتم رضاعته، فمع حرص الإسلام على صحة الأم، وصحة الطفل، والأمر بإتمام الرضاعة له، فمن هنا جاز للمرأة تأخير الحمل حتى يفطم الرضيع، وبزوال السبب يزول المنع أو التأخير.

وقد جاء فى معنى الحديث «إياكم والغيل، فإنه يدرك الفارس فيدعثره من على فرسه..

والغيل هو القتل سرًا، ومن أسبابه منع الولد من حقه فى الرضاعة، الذى يؤثر عليه فى كبره، مما يجعل أقرانه يتغلبون عليه، فيقتلونه.

ـ التنظيم للنسل بوجود أسبابه الصحيحة، وغايته

المشروعة، لا يغير من قدر الله شيئًا، وإنما هو من باب «نفر من قدر الله إلى قدر الله».

- وفى الأخير: يبدو أن مسألة تحديد النسل لها أبعادها السياسية والدينية، وليست الاقتصادية أو الاجتماعية، حيث لا ينادى بدعوى تحديد النسل إلا بين المسلمين فقط، فلماذا؟ وما السر فى دفع معونات كبيرة وكثيرة للعالم الإسلامى من أجل تحديد نسله؟ أهو النهوض بهذا العالم المتخلف أو النامى، والبحث عن مصلحته؟ أم هو حسد للمسلمين حيث لديهم من الخصوبة فى الإنجاب ما ليس لغيرهم؟!!

ثم نحن فى النهاية نقول مع القرآن ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾.

* * *

الوصية الرابعة

﴿ ..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾.

مدخل: لما وصاهم الله تعالى - فى الوصيتين السابقتين - بالأسرة - فى قوله تعالى: ﴿ ..وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.. ﴾ وصاهم هنا فى تلك الوصية بالقاعدة التى تقوم عليها - كما يقوم عليها المجتمع كله - وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها، فهو نهى مرتبط تمامًا بالوصية السابقة عليها، وبالوصية الأولى التى تقوم عليها كافة الوصايا.

إنه لا يمكن قيام أسرة ولا استقامة مجتمع فى وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

إنه لابد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع.

والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تنزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع.

كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] .

وذلك لأن نظافة المجتمع الإسلامى وطهره من الرزيلة هدف قرآنى لا يقل أهمية عن وجود ذلك المجتمع ذاته ـ **ففى مقاييس الإسلام ليس المجتمع مجرد أفراد يأكلون** ويشربون ويتصيدون المتع، لكنه ـ قبل كل شىء ـ أفراد مرتبطون متحدون، متعاونون متآلفون، تسود حياتهم الرحمة، ويزينها الطهر ويدفعها إلى الأمام التعاون على البر والتقوى والتناهى عن الإثم والعدوان، وليس من طبيعة الإسلام أن يصادم الفطرة أو يحارب الحاجات الحيوية للبشر ولكنه جاء ضابطًا ومنظمًا، يدفع المؤمنين نحو الكمال ويجنبهم المعاطب، ليصل بالأمة الإسلامية إلى مستوى العزة

(١) سورة النور: [١٩] .

المنشودة والقيادة المرجوة، لتكون - بحق - خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ.. ﴾ .

﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا.. ﴾ نهى عن مجرد الإقتراب سدًا للذرائع، واتقاء للجاذبية التى تضعف معها الإرادة، حيث إن الفواحش ذات إغراء وجاذبية، فلما كان للنساء إغراء قال الله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. ﴾ وكذا ﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ.. ﴾ ولذلك حرمت مقدمات الزنا التى تؤدى إليه من النظرة المتعمدة، والكلام بغير ضرورة، والاختلاط بغير ضرورة، والمصافحة إلا على محرم، وكذلك التبرج، والحركات المثيرة أو الضحكات والاشارات، وكذا الخلوة بالأجانب وكل ما من شأنه يؤدى إلى هذا المحرم.

لأن هذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا فى المقاومة، فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات، وهو دين يستعمل المرهم قبل

المشرط، وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس[1] ، وربك أعلم بمن خلق ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]؟! ورحم الله الشيخ محمد الغزالى إذ قال: «إننا إذا اتفقنا على أن السل مرض، فلا نختلف فى منع أسباب العدوى، وإذا اتفقنا على أن الزنا فاحشة فلا نختلف فى منع ما يؤدى إليه من التبرج والانطلاق».

فقوله تعالى: ﴿..وَلا تَقْرَبُوا..﴾ تعليق النهى بقربانها للمبالغة فى الزجر عنها، لأن قربانها قد يؤدى إلى مباشرتها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشىء فلأن ينهى عن فعله من باب أولى.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..﴾[3] وذلك لما فى المال من إغراء وما له من بريق ورنين يجذب إليه ذوى النفوس الضعفية، ويضاهيه قول الله

---

(١) فى ظلال القرآن.

(٢) سورة الملك: [١٤].

(٣) سورة الأنعام: [١٥٢] وكذا سورة الإسراء.

تعالى: ـ فى الخمـر وما لها من سيطرة على العـقول وكذا الميسر لحب المال أيضًا، والأنصاب والأزلام كمنافع دنيوية، ووسـاوس شيطانيـة ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) .

فالنهى عن القرب للمبالغـة فى النهى عنه وشدة قبحه، لما فـيه من أضـرار ومفـاسد، ولأن المرأة إذا عـرفت بالزنا واشتـهرت به استـقذرها كل ذى طبع سليم، ولما فـيه من معانى البهيمية التى فى تلك الجريمة النكراء.

والنهى عن القرب فى الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه فضلاً عن مباشـرته هو، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾(٢) إنها منطقة محظورة، يمنع منها الاقتراب فضلاً عن دخولها(٣) .

---

(١) سورة المائدة: [٩٠]. (٢) سورة الإسراء: [٣٢].

(٣) تفسير القاسمى جـ٨ صـ٢٥٦ وتفسير المراغى جـ١٥ صـ٤٢ بتصرف.

﴿ ..ولا تقربوا الفواحش.. ﴾ .

الفواحش: جمع فاحشة، والفاحشة: كل ما أفحش - أى تجاوز الحد، وعظم قبحه من الأفعال والخصال كالزنا واللواط وقذف المحصنات ونكاح أزواج الآباء، وكل منها قد سمى فى التنزيل فاحشة.

فعن الزنا، قال الله تعالى: ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[1] .

وعن اللواط، قال تعالى: ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾[2] .

وعن قذف المحصنات، قال سبحانه - بعد حديثه عن الإفك ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.. ﴾[3] .

وعن نكاح زوجات الآباء، قال تعالى: ﴿ ولا تنكحوا ما

(١) سورة الإسراء: [٣٢].
(٢) سورة النمل: [٥٤].
(٣) سورة النور: [١٩].

نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1].

فهـذا مُسَلَّم به لتصـريح القرآن به، وقـد علم أن الزنا فاحـشة بنص الآية، وأنه من المـمكن تفسيـر هذه الآية أو تلك الوصـية ﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ..﴾ فى سـورة الأنعـام بالآية ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ فى سـورة الإسراء، لولا أن الآية جـاءت هنا بصيغة الجمع ﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ..﴾ فوقع إشكال ـ عند المفـسرين ـ هل المراد بالفـواحش هنا الزنا ومقـدماته، ويكون الجمع من باب أن الزنا لـيس فاحشة فـحسب، بل هناك مقدمات تؤدى إليه، وهى من جنس الفواحش كالزنا والسرقـة وشرب الخـمر والقـتل وأكل مال اليـتيم.. إلخ بدليل قوله ﷺ: **«أرأيتم الزانى والسارق وشـارب الخمر، مـا تقـولون فـيـهم؟ قـالـوا: الله ورسـوله أعلم، قـال: هن فواحش وفيهن عقوبة»**[2] وكذا قوله ﷺ: **«مسألة الناس**

---

(1) سورة النساء: [٢٢].

(2) أخرجه ابن أبى حاتم عن عمران بن حصين.

من الفــواحش»[1] فيكون المراد بها عمــوم الفاحشة وعدم تخصيصــها ببعض أفرادها[2] والذى يبــدو لى ـ والله أعلم بمراده ـ أن المراد بالفــواحش هنــا «جــريمة الزنا» وإنما جىء بصيغــة الجمع قصدًا إلى النهى عن أنواعه، أو مــبالغة، أو باعتــبار تعدد مــن يصدر منه، فيــغلب على الظن أن يكون المعنى بها فى هذا الموضوع «فاحشة الزنا» لأن المجال مجال تعديد مــحرمات بذاتها، فــتكون هذه واحدة منها بعــينها، وإلا فقــتل النفس فاحــشة، وأكل مــال اليتــيم فاحــشة. . والشرك بالله فاحشة الفواحش. .

فتخصيص «الفواحش» هنا بفواحش الزنا ومقدماته أولى بطبيــعة السيــاق، وصيغــة الجمع ـ كــما علمت ـ لأن هذه الجريمة لها مــقدمات وملابسات كلــها فاحشة مــثلها، تبدأ بالنظرة والمصــافحة والتــبرج والتهــتك، والاختلاط المثــير، والكلمــات والإشارات والحــركات والضــحكات الفاجــرة،

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى حازم الرهاوى.

(٢) قاله القرطبى، وصاحب المنار.

والصورة والقصة والأفلام الداعرة، وسائر ألوان الإغراء والتزيين والاستثارة.. كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة، وإذ هى فواحش فمنها الظاهر ومنها الباطن، منها المستتر ومنها المعلن[1] ..

وقد قال الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

﴿ ..مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾ .

لما كان الزنا فاحشة ومستقبحًا، حتى كان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا ويعدونه أكبر العار، ولا سيما إذا وقع من الحرائر، حتى إن «هند بنت عتبة» - عند مبايعة النساء، وفيها ﴿ولا يزنين﴾ - قالت: «أو تزنى الحرة يا رسول الله؟!!» فكان وقوعه منهن نادرًا، وإنما كان يجاهر به الإماء فى حوانيت ومواخير تمتاز بأعلام حمر فيختلف إليها أرذالهم، وأما أشرافهم فيزنون سرًا ممن يتخذون من

(١) قال به القاسمى والمراغى والطبرى وصاحب الظلال، وما جاء فى المأثور.

الأخـدان، كمـا أشارت إليـه الآية ﴿ ..مُحْصَنَات غَيْرَ مُسَافِحَات وَلا مُتَّخِذَات أَخْدَان.. ﴾[1] والخدن: الصديق، يطلق على الـذكـر والأنثى، ويعـبـرون بمصـر عن خـدن الفاحشة بالرفيق والرفيقة، وعن المخادنة بالمرافقة، وهو عند فسـاقهم فـاش ولا سيمـا الأغنياء منهم، لذلـك يقول ابن عباس أيضًا رضى الله عنهما - فى تفسير الآية -: كانوا فى الجاهـلية لا يرون بأسًـا بالزنا فى السر ويسـتقـبحـونه فى العلانية، فحرم الله الزنا بالسر والعلانية، أى بهذه الآية وما فى معناها.

وفى رواية عن ابن عباس أيضًا من طريق عطاء فى الآية ﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا.. ﴾ قال: العـلانية ﴿ ..وَمَا بَطَنَ.. ﴾ قال السر. وكذا جاء عن «الضحاك».

وعنه أيضًـا: ﴿ .. مَا ظَهَرَ مِنْهَا.. ﴾ نكاح الأمـهات والبنات، ﴿ ..وَمَا بَطَنَ.. ﴾ الزنا.

(١) سورة النساء: [٢٥].

عن عكرمة ـ على القول بعموم الفاحشة ـ قال: ﴿ ..مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ ظلم الناس، ﴿ .. وَمَا بَطَنَ .. ﴾ الزنا والسرقة، أى لأن الناس يأتونهما فى الخفاء.

وقال الإمام الطبرى فى الآية: عن السدى: ﴿ .. مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ زوانى الحوانيت، وأما ﴿ .. وَمَا بَطَنَ .. ﴾ فما خفى. وقال صاحب المنار: يقال فى هذه الآية ما قيل فى قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ .. ﴾[1] من الوجوه فى ظاهره وباطنه، إلا أن الإثم أعم من الفاحشة، لأنه يشمل كل ضار من الصغائر والكبائر فحش قبحه أم لا، ولذلك قال تعالى:ـ فى صفة المحسنين ـ فى سورة النجم ـ: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ .. ﴾[2] وقال فى آية الأعراف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا

(١) سورة الأنعام: [١٢٠].
(٢) سورة النجم: [٣٢].

تَعْلَمُونَ﴾[1] قيل إنها جمعت أصول المحرمات الكلية وهى على الترقى فى قبحها..

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه - مرفوعًا - «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[2] .

ثم قال الشيخ - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ..**﴾ فى معنى ظاهره وباطنه وجوه: الظاهر منه ما فعل علنًا، والباطن ما فعل سرًا.

أو الظاهر ما ظهر قبحه أو ضرره للعامة وإن فعل سرًا، والباطن ما يخفى ذلك فيه إلا عن بعض الخاصة وإن فعل جهرًا. أو الظاهر ما تعلق بأعمال الجوارح، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب كالنيات والكبر والحسد والتفكير فى تدبير المكايد الضارة والشرور.

وقال القرطبى فى الآية ﴿**..مَا ظَهَرَ مِنْهَا..**﴾ نهى عن

(١) سورة الأعراف: [٣٣]. (٢) رواه البخارى.

جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى، ﴿ .. وَمَا بَطَنَ .. ﴾ ما عقد عليه القلب فى المخالفة.

وظهر وبطن: حالتـان تستوفيان أقسـام ما جعلت له فى الأشياء.

وقال صاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿ ..مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ البادى فى الجوارح ﴿ .. وَمَا بَطَنَ .. ﴾ المستتر فى الضمـير، أو هو المعلن المكشـوف، والمخبوء المسـتور، وكلهـا فـواحش تحطم قـوام الأسـرة، وتنخـر فى جسـم الجـماعـة، فـوق ما تلطـخ ضمـائر الأفـراد، وتحقـر فى اهتماماتهم.

إن الزنا وما يضاهيه من اللواط مما ثبت شدة قبحه شرعًا وعقلاً، ولـذلك يستتر بفـعلهما أكثـر الذين يقترفونهـما، وقلما يجاهر بهـما إلا المستولغ من الفـساق الذى لا يبالى ذمًا ولا عـارًا إذا كان مثـله، وهو يتبرأ منهـما لدى خـيار الناس وفضلائهم.

والزنا فاحشـة، بل أى فاحشة هو، لما فيـه من اختلاط

الأنساب، والتقاتل والتناحر دفـاعًا عن العِرض، وأنه سبيل سئ من قِـبل أنه يســوى بين الإنســان والحيــوان فى عــدم اختصاص الذكران بالإناث.

والزنا من الفـواحش التى تعكس على الإســلام خططه وتدفع بالأمة التى يروج فـيها إلى الفـشل والدمار، ولذلك حـرمه الإســلام، واتخـذ من الوســائل والتدابيــر مــا يقى المسلمين خطورته، ويعصــمهم من مصيــره المشئوم، فكم - بانتشــاره - أمات حـضارات، وحطم كـيان مجـتمـعات، وانهارت بسببه دعائم أسر، وبنيان عائلات.

اذًا فقوله تعالى: ﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾ كقـوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ فما الزنا؟.

عرفه «المالكية»: بأنه وطء مكلف فرج آدمى لا ملك له فيه باتفاق متعمدًا.

وعند «الحنابلة»: هو فعل الفاحشة فى قُبل أو دبر.

ويقـول ابن رشـد: هو كل وطء وقع على غـير نكاح صـحيح ولا شبـهة نـكاح ولا ملك يمين، وهذا محـل اتفاق[1] .

ويقول الأستاذ أحمد موافى: الزنا ـ فى نظر الشريعة ـ كل صلة جنسية محرمة بين رجل وامرأة[2] .

ويشتـرط فى جريمة الزنا أن تتوفـر لدى الزانى والزنية، نية العمد أو القصد الجنائى.

ويعتبر القصد الجنائى موجودًا ومتوفرًا إذا ارتكب الزانى الفعل وهو عـالم أنه يطأ امرأة محرمـة عليه، أو إذا مكنت المرأة من نفسها وهى تعلم أن من يطؤها محرم عليها.

وبذلك يخرج من دائرة العقوبة من وقع فى هذه الجريمة خطئًا أو إكراهًا، والله أعلم.

هذا.. والزنا من أعظم الـكبائـر والمصائـب التى تنكد على الشخص حيـاته، وتفسد عليه دنيـاه وأخراه، وتجعله

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد. (٢) الفقه المقارن بين الشريعة والقانون.

فى نكد دائم، وهم لا يفـارق، ولا يزال شبحـها يطارده، وضررها يلاحقـه حتى عند وفاته، وفى قـبره، ويوم يقوم الأشهاد.

جريمة الزنا ـ أعاذنا الله منها ـ تلك الفاحشة الكبرى التى تجلب لفاعلها العذاب فى الدنيا والآخرة، تلك الجريمة التى تتسبب فى زوال الصحة والعافية، وحلول البلايا والأسقام، وتتسبب كذلك فى محو البركة ومحق الأرزاق!!

تلك الجـريمة النكراء، التى تتـسبب فى قطع الأرحـام، واختـلاط الأنساب، وزوال الإيمان. تلك الـكبيرة الشـنعاء التى تُلحق العار والشنار، وتوجب فى الآخرة عذاب النار.

فكم من نفس قـد أزهقت بسبـبها، وكم مـن رحم قد قطعت، وكم من امرأة قـد طلقت، وكم من صداقـات قد مزقت، وكم من مولود قد ألحق بغير أبيه.

كم من وجه قـد سلب بهاؤه، وكم من عـين قد سلب ضـياؤها، وكـم من قلب قد اضـطرب وانقلب، وكم من إيمان قد زال وانكمش بسبب هذه الفاحشة المنكرة.

فاللهم نسألك العافية والستر والنجاة من هذه الفاحشة وأن تجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لقد حرم الله تعالى الفواحش عمومًا، والزنا على وجه الخصوص، وحذر من ذلك أيما تحذير، وبين ذلك أوضح بيان، فى كثير من آى القرآن، ومنها قول ربنا الرحمن ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ.. ﴾[١] وقال سبحانه ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾[٢] فى سورة الأعراف وهذه الآية فى سورة الأنعام ﴿ ..وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾[٣] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٤] .

وتوعد الله أشد الوعيد من أحب شيوع الفواحش

---

(١) سورة الأعراف: [٢٨، ٢٩].

(٢) سورة الأعراف: [٣٣].

(٣) سورة الأنعام: [١٥١].

(٤) سورة النحل: [٩٠].

وانتشارها فى أوساط المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١) وبين الله سبحانه أن الداعى إلى هذه الفاحشة والمزين لها هو الشيطان، فقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً..﴾(٢) .

وكذلك فقد بين ـ سبحانه ـ أن رغبة متبعى الشهوات فى ذلك هى زيغ الناس وإضلالهم وإيقاعهم فى الفواحش، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾(٣) .

وأما الزنا على وجه الخصوص فقد جاءت النصوص مرهبة منه أيما ترهيب، وإن كان مندرجًا فيما سبق ذكره من آيات تنهى عن الفواحش، وتحرم الفاحشة. ولكن جاءت هذه الآيات بصريح اللفظ وهنا قال الله تعالى: ﴿وَلا

---

(١) سورة النور: [١٩].
(٢) سورة البقرة: [٢٦٨].
(٣) سورة النساء: [٢٧].

تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[3] وقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[4] .

وكذا جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ تحمل وعيداً شديداً للزناة مثل قوله ﷺ: «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن**»[5] وقال ﷺ - فى صلاة الخسوف - «.. **يا أمة**

(١) سورة الإسراء: [٣٢].
(٢) سورة النور: [٣].
(٣) سورة المؤمنون: [٥ - ٧].
(٤) سورة الفرقان: [٦٨ - ٧٠].
(٥) رواه البخارى ومسلم.

محمد، ما من أحد أغير من الله من أن يزنى عبده أو أن تزنى أمته»[1] فيا سبحان الله! سبحانك ربنا ما أحلمك، وما أرحمك ولقد قال سعد بن عبادة رضى الله عنه: **«لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير منى لذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**[2] وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: **«يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن-: لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا...»**[3] الحديث.

وعن هذا الطاعون وتلك الأمراض حَدِّث ولا حرج فى وقت تقدم فيه الطب وانتشر العلم، ومع ذلك لانتشار الفاحشة فقد انتشرت الأمراض الفتاكة والمستعصية على

(١، ٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه ابن ماجة وصححه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة.

العلاج، والتى عجز الطب والأطباء عن علاجها، أمثال: «مرض الإيدز» الذي هو مرض العصر، ومن قبله «الزهرى» و«السيلان» وأمراض جنسية أخرى كثرت بكثرة الفاحشة، وفتكت بأهلها فتكًا.

وقد ذكرت تقارير منظمة الصحة العالمية أن الأمراض الجنسية هى أكثر الأمراض انتشارًا فى العالم، وأنها أهم وأخطر المشاكل الصحية العاجلة التى تواجه دول الغرب، فعدد الإصابات فى ارتفاع مستمر فى كل الأعمار، خصوصًا فى مرحلة الشباب»[1].

ولعظيم جرم هذه الفاحشة وشدة نكارتها جعلت عقوبتها من أشد العقوبات، فجعلت عقوبة هذه الجريمة النكراء الرجم بالحجارة حتى الممات لمن زنى وهو محصن، والجلد والإبعاد عن البلاد عامًا لمن زنى ولم يكن قد أحصن، كما قال ﷺ: «خذوا عنى، خذوا عنى، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة ونفى سنة،

(١) راجع بتوسع كتاب «ولا تقربوا الزنا..» للشيخ مصطفى العدوى.

والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[1] وغيره من الأدلة.

ودليل الرجم أيضًا: رجم «ماعز بن مالك»، والغامدية، وكذا امرأة من جهينة.

هذا وكما استخدم القرآن الكريم الحد عقوبة على جريمة الزنا، فقد استخدم النبى ﷺ أسلوب الإقناع، ليعالج هذا المرض، كما حدث مع الشاب الذى أتى النبى ﷺ يستأذنه فى الزنا، حيث أخرج الإمام أحمد في مسنده، من حديث أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ قال: **«إن فتى شابًا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: ائذن لى بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: « ادنه »، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: «أتحبه لأمك»؟ قال: لا والله، جعلنى الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلنى الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: «أفتحبه لأختك»؟ قال: لا والله، جعلنى الله فدائك، قال: «ولا**

---

(١) رواه مسلم.

الناس يحبونه لأخواتهم، قال: «أتحبه لعمتك»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم..، قال: «أفتحبه لخالتك»؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك يا رسول الله، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[1].

ولما كان الزنا بهذا الحجم وذلك الجرم فقد حرم الله تعالى كل السبل الموصلة إليه، وسد كل الأبواب الموقعة فيه، والنوافذ التي تؤدي إليه.

فمن هذه السبل الموصلة إليه والتي مُنعنا منها: النظر إلى ما حرمه الله علينا، وكذلك الاستماع للغناء الفاحش، والمعازف، والخلوة المحرمة، والخضوع بالقول، والتبرج والسفور، والاختلاط، والسفر بلا محرم، والتزين لغير الزوج، والضرب بالأرجل لإظهار ما خفي من الزينة،

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥ / ٢٥٦) بإسناد صحيح.

ومصافحة من ليست بمحرم من النساء، والتطيب عند الخروج، والخروج لغير ضرورة.

إلى غير ذلك مما يؤدى إلى هذه الفاحشة المنكرة، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى..﴾ .

كما جاءت أوامر أخرى للصد عن هذه الفاحشة الكبرى، فجاءت الأوامر بتقوى الله عز وجل، ومراقبته فى السر والعلن، وجاء فى غير موطن من كتاب الله تعالى التذكير بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وجاء التذكير كذلك بأن الله يسمع ويرى، وبأنه سبحانه معنا أينما كنا، وكذلك فقد جاء التذكير مرارًا وتكرارًا بأن علينا حافظين، كراما كاتبين.

إلى غير ذلك من النصوص الحاثة على مراقبة الله عز وجل، والمذكرة بتقواه، والمحذرة من اليوم الآخر وما فيه، وجاءت أوامر أخر فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ للصرف عن هذه الفاحشة كالأمر بالقرار فى البيوت، والأمر بالاستعفاف، وبالاستئذان داخل البيوت وخارجها،

والأمر بالتفريق بين الأبناء فى المضاجع، والأمر بالتبكير بالزواج عند القدرة عليه.

وجاءت نصوص من الكتاب والسنة تحذر من مجالسة أصدقاء السوء الذين يجرون الناس إلى الفواحش ويزينونها لهم، وكذلك نصوص تحذر من الجلوس فى أماكن اللهو والباطل، والسفر إلى بلاد الكفر، حيث لا داعى للسفر ولا حاجة إليه، إلى غير ذلك من السبل الواقية من هذه الجريمة النكراء.

هذا وقد ذكرت ما سبق بالإشارة إليه مع عدم ذكر الدليل أو مع التوسع والتفصيل، فإن فعلتُ فإن ذلك يحتاج إلى سفر جليل، وكتاب كبير مستقل، وليس ذلك مقصودًا فى هذا السبيل.

﴿ ..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾.

أنعم بها من وصية، وأكرم بها من دواء لما نعانيه من أدواء، وشفاء لما نئن تحت وطأته من أمراض، إنه لاصلاح للمجتمعات إلا بمثل هذه الوصية، ولا سبيل لخروج الأمة

مما هى فـيه من ذل وشـقاء وهزيمة وضـياع إلا باتبـاع هذه الوصية، والرجوع إلى منهج رب البرية.

إنهـا صلاح الأسـرة التى تؤدى إلى صـلاح المجتـمع، ولاصلاح للمجتمع إلا بإصلاح الأسرة، إنها دعوة للوقاية والصيانة والعفة والـشرف، والطهارة والصلاح والإصلاح، ذلك لأنه لا يصلح مجتمع، ولا تستقيم أسرة انتشرت فيها الفواحش، فكم من مـجتمـعات ضاعت، وامـبراطوريات انهدمـت، وأسر تحللت، وأمم قـد زالت، وحضـارات قد أبيدت، والسر فى ذلك انتشـار الفواحش، ووقو ع التحلل والانحلال، وحيث اسـتشرت الفواحش وأعلن عنهـا بغير حـيـاء ولا خجـل، وبلا إنكار ولا وجل، لذلك ﴿ ..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾ حـتى نعـالج الخلل، ونبتعد عن التحلل، ونخـرج مما نحن فيه من مهانة وذل، وحتى لا نضيع ولا نضل.

﴿ ..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. ﴾ إنه العلاج للعلات التى انتشرت فى المجتـمعات، حسية كانـت أو معنوية، جسدية

كانت أو قلبية، روحية أو نفسية، اجتماعية كانت أو سياسية.

﴿ ..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. ﴾ علاج للمنكرات، ورذائل الأخلاق، فى الظاهر أو الباطن، من أجل اتباع المنهاج القويم، والسير على الصراط المستقيم، كانت هذه الوصية. إلى كل راع ومسئول، إلى كل ولى أمر، إلى العلماء، إلى كل شيخ كبير، إلى كل أب كريم، إلى كل أم كريمة، إلى كل زوج عفيف، إلى كل زوجة وفية، إلى كل شاب مسلم، إلى كل فتاة مسلمة، إلى كل أخ غيور، إلى كل مريد للتعفف، وناشد للإحصان، وراغب فى العصمة من الزلل، إلى ذوى الغيرة والشهامات، إلى كل هؤلاء جميعًا ﴿ ..وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.. ﴾ إلى هؤلاء جميعًا ﴿ ..وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إلى هؤلاء جميعًا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ إلى هؤلاء جميعًا «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهى مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» إلى هؤلاء جميعًا : عليكم بتقوى الله، وعليكم بمراقبة الله فى السر والعلن، ومجاهدة النفس وتزكيتها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ ومن تعفف يعفه الله، وعفوا تعف نساؤكم، وكما تدين تدان، واحذروا التفريط فى جنب الله قبل فوات الأوان، والموت يأتى بغتة، والقبر صندوق العمل.

* * *

الوصية الخامسة

﴿ ..وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ.. ﴾

مدخل: أى والوصية الخامسة من وصايا ربكم، ومما أتلوه عليكم: ألا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ويكثر فى السياق القرآنى مجيء النهى عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، والزنا، وقتل النفس، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١] .

ذلك لأنها كلها جرائم قتل فى الحقيقة. الجريمة الأولى: جريمة قتل للفطرة، والثانية: جريمة قتل للجماعة، والثالثة: جريمة قتل للنفس المفردة، أو الأسرة المسلمة.

(١) سورة الفرقان: [٦٨-٧٠].

إن الفطرة التى لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة، والجماعة التى تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، وهى منتهية إلى الدمار حتمًا، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية شواهد من التاريخ، ومقدمات الدمار والانهيار فى الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم جعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هى أقصى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار والانهيار.

ولقد سبق النهى عن قتل الأولاد من إملاق، فالآن ينهى عن قتل النفس عامة، فيوحى بأن كل قتل فردى إنما يقع على جنس «النفس» فى عمومه، يؤيد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة: [٣٢].

فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية فى عمومها، وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء، وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة فى دار الإسلام وأمنها، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمنًا على حياته، لا يؤذى فيها إلا بالحق، والحق الذى تؤخذ به النفس بينه الله فى شريعته، ولم يتركه للتقدير والتأويل، ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة، وأصبح لها من السلطان ما يكفل لها تنفيذ الشريعة.

وهذه اللفتة لها قيمتها فى تعريفنا بطبيعة منهج هذا الدين فى النشأة والحركة، فحتى هذه القواعد الأساسية فى حياة المجتمع لم يُفَصِّلها القرآن إلا فى مناسبتها العملية، وقبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف يفصل بين هذا القسم والذى يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾[1] .

---

(١) فى ظلال القرآن.

﴿ولا تقتلوا النفس..﴾ الألف واللام فى النفس لتعريف الجنس، كقولهم: أهلك الناسَ حبُّ الدرهم والدينار، ومثله فى القرآن ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[1] وغيرها وفى هذه الآية نهى عن قتل النفس، لجريمة تلك الفعلة، وهى أول جريمة وقعت على الأرض فى أبناء آدم لما قتل «قابيل» أخاه «هابيل»، ولذا بين النبى ﷺ نصيب ابن آدم «قابيل» من هذه الجناية بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»[2].

قتل النفس ـ فى الإسلام ـ جرم عظيم، فهو من أكبر الكبائر، وإراقة دم بغير حق من أعظم الذنوب أى بعد الشرك بالله تعالى، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[3].

---

(1) سورة المعارج: [19].

(2) رواه أحمد (383/1) والبخارى (162/4) ومسلم (106/5).

(3) سورة النساء: [93].

كما قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[1].

وكمـا وقف ﷺ - أمام الكعبة، ثم قـال: «ما أعظمك ومـا أعظم حـرمـتك عند الله عـز وجل، ووالله إن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[2].

وقال ﷺ: «من أعان على قَـتْل مسلم ولو بشطر كلمة فقد قَتَل»[3].

كما لو اجتمع أهل قـرية على قتل رجل واحد لقتلوا به جميعًا، كما قاله «عمر بن الخطاب - رضى الله عنه».

فالله أكبـر.. ما أكثر الدماء الذكـية الطاهرة التى تراق، وما أكثر النفوس المسلمة التى تزهق بغير حق، وما أرخص دماء المـسلمين فى العالم، فى كل شـبر من بـقاع الأرض تراق الدمـاء الذكيـة فأين العـالم من هذه الوصيـة؟ وأين مـحكمـة العـدل الدوليـة؟ وأين مـجلس الأمن، وهيـئـة الأمم؟!! دمـــاء تراق فـى كل مكـان، فى الداخـل وفى

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه ابن ماجة (٣٩٣٢) بإسناد ضعيف.

(3) رواه ابن ماجة (٢٦٢٠) بإسناد ضعيف.

الخارج، ومحنة المسلمين لم تنحصر فى الأقليات بل تعدتها إلى الأكثريات، ولم تقف عند حد المحتل من الخارج حتى سبقهم أبناء الوطن فى الداخل، والعالم كله الآن يتابع مجازر المسلمين فى كل مكان: **فى العراق، فى فلسطين، فى أفغانستان، فى الشيشان، فى كشمير، فى أراكان، فى** البوسنة والهرسك، فى كردستان، فى كوسوفا، فى السودان، . . . فى كل مكان، عشرات بل مئات وآلاف تقتل بغير حق، فما أحوج الدنيا لأن نتمسك بمنهج الله عز وجل، وبمثل هذه الوصية وتلك الوصايا ﴿**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق**﴾.

﴿**ولا تقتلوا النفس..**﴾ ولما كانت «**أل**» فى النفس للجنس فيكون النهى عن قتل أى نفس، ومنه قتل الإنسان نفسه، فكما نهى الله عن قتل الإنسان غيره فقد نهاه أيضًا عن قتل نفسه، إذ أن هذه النفس هى الجوهرة الربانية والأمانة الغالية التى استودعه الله إياها، فإذا ما اعتدى عليها فقد خان العهد ولم يصن الأمانة، ولذلك قال تعالى:

﴿ ..ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾[1].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[2].

فلا يجوز قتل الإنسان نفسه «منتحرًا» ولا قتل غيره ظلمًا وعدوانًا، فأما قاتل نفسه فقد اختلف فيه، هل مات مسلمًا أم مات كافرًا؟ عياذًا بالله تعالى.

وأما قاتل غيره فقد اختلف فيه، هل له توبة أم لا؟

وذلك إن دل على شىء، فإنما يدل على عظم هذا الذنب الذى هو من أخطر الذنوب، وأقبح الكبائر، كما أنه من الموبقات، المقحمات فى النار، نعوذ بالله تعالى.

(١) سورة النساء: [٢٩].
(٢) رواه أصحاب السنن الأربعة.

وقد دل علـى هذا قوله ﷺ: «اجتنبوا السبع المـوبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقـتل النفس التى حـرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مـال اليـتـيم، والتـولى يوم الزحف، وقـذف المحـصنات الغافلات المؤمنات»[1].

كما قـال ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة، ملحد فى الحرم، ومبتغ فى الإسـلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه»[2].

وفى الحديث أيضًا: «لا يزال المؤمن فى فـسحة من دينه مالم يصب دمًا حرامًا»[3].

وكـذلك «كل ذنب عـسى الله أن يغفـره إلا من مـات مشركًا، أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا»[4].

---

(١) أخرجه الخمسة إلا الترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٣) أخرجه البخارى وأبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٤) رواه أبو داود والنسائى.

وفى الحديث كذلك: «لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار»[1].

كما قال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»[2].

وهذا فضلاً عن نفى الإيمان عن القاتل كما فى الحديث: «.. ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن»[3].

﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾ بعد أن نهى الله عز وجل عن قتل النفس، خص منها النفس المحرمة أو التى حرمها، وهى النفس المحترمة، التى حرم الله قتلها بالإسلام أو بعقد الذمة، أو بالعهد، أو بالاستئمان، فيدخل فى عمومها كل أحد إلا الحربى.

ويطلق العهد على الثلاثة، ومنه ما ورد فى النهى عن قتل المعاهد وإيذائه، كقوله ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه الترمذى والنسائى.
(٣) رواه البخارى ومسلم.

رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»[1].

وقوله ﷺ: «من قـتل معاهدًا له ذمة الله وذمـة رسوله فقـد أخفـر بذمة الله، فـلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحـها ليوجد من مسيرة خمسين خريفًا»[2].

ثم استثنى ربنا عز وجل من تلك القـاعدة العامة، وهى حرمة قتل النفس الـتى حرم الله، ذلك الاستثناء: ﴿ ..**إلا بـالحـق**﴾ وهل هناك قتل نفس بالحق؟ نعم. فـما هو ذلك الحق الذى يبيح قتل النفس المحترمة؟ من ذلك:

أولاً: القصاص: وهو قتل القاتل عمداً بشرطه

فلقد اقـتضت عـدالة الله تعالى أن يحـفظ الدماء من أن تهدر، فأوجـب «القصاص» فى الجروح والأنفس، كـما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن**

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح. ورواه ابن ماجة عن أبى هريرة.

(٢) رواه البخارى من حديث عبد الله بن عمرو.

رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

كما قال أيضًا: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2] .

والآية الثانية أعم، إذ فيها معنى قتل النفس بالنفس توضيحًا للآية الأولى حتى لا يفهم منها التخصيص الوارد فيها «الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى» فليس ذلك هو المراد على سبيل التخصيص، لأن معنى القصاص فيه التسوية والعموم.

وقيل إن آية المائدة نسخت آية البقرة، وفيه خلاف، ولا داعي للقول بالنسخ عند صحة فهم الآية الأولى، لأن التخصيص هذا كان سببًا للنزول، وهو رد لفعل الجاهلية، قتلهم السيد بالعبد، أو الذكر بالأنثى.

(١) سورة البقرة: [١٧٨، ١٧٩]. (٢) سورة المائدة: [٤٥].

ولكن لا يقتل مسلم بكافر، على الراجح والصحيح عند الجمهور، وكذلك لا يقتل سيد بعبده ، ولكنه يُعزَّر، حسبما يرى الحاكم، ولا يخفى أن التعزير قد يكون بالقتل، فإذا عُهد فى قوم من القسوة ما يقتلون به عبيدهم، فللإمام أن يقتل السيد بعبده تعزيرًا لا حدًا، إذا رأى المصلحة العامة من ذلك، واستثنوا أيضًا «الوالدين» فقالوا: لا يقتل الوالد بولده، ولذلك علته، لأن الحدود توضع حيث تتحرك النفوس للجناية لتكون رادعة من الاستمرار فيها، وقد مضت السنة الإلهية فى الفطرة بأن قلوب الأصول «الآباء» مجبولة على الشفقة والحنو على الفروع «الأبناء» حتى إنهم ليبذلون أموالهم وأرواحهم فى سبيلهم، وكثيرًا ما يقسو الولد على والده، وقلما يقسو والد على ولد إلا لسبب قوى كعقوق شديد أو فساد فى أخلاق الولد جنى على أصل الفطرة كالافراط فى حب الذات، ولكن هذه القسوة لا تفضى إلى القتل إلا لأمرٍ يكاد يكون فوق الطبيعة كعارض جنون من الوالد، أو إيذاء لا يطاق من

الولد، ولما كان هذا شاذًا ونادرًا جعل كالعدم فلم يلحظ فى وضع الحد، لأن الأحكام تناط بالمظنة لا بالشواذ التى يندر أن تقع، ومع هذا فإنه يعزر من قتل ولده بما يراه الحاكم لائقًا بحاله ومربيًا لأمثاله»[1].

ودليل القصاص من السنة: عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - «أن يهوديًا رضَّ رأس جارية بين حجرين، فقيل لها: من فعل هذا بك؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى سمى اليهودى فأومات برأسها، فجىء باليهودى فاعترف، فأمر به النبى ﷺ فَرضَّ رأسه بحجرين»[2].

هذا.. ولما كان الإسلام لا يحب القتل أو الاكثار منه ولو كان ذلك بحق من الحقوق كوجوب القصاص، وهو أصل العدل، أفسح فى المجال، فذكر أمر العفو، وهو مقتضى التراحم والفضل، وأباح الديات بدلاً من القتل،

---

(١) انظر تفسير المنار فى الآية [يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى..].

(٢) رواه الخمسة.

فـقـال تعـالى: ﴿ ..فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ .. ﴾[1].

وفى الحديث: «من قـتل مؤمنًا مـتعمـدًا دفع إلى أولياء المقتـول، فإن شاءوا قتلوا، وإن شـاءوا أخذوا الدية ـ وهى ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة، وما صالحوا عليه فهو لهم، وذلك لتشديد العقل»[2].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهـما ـ «أن رجلاً من بنى عدى قُـتل فجعل النبى ﷺ ديـته اثنى عشـر ألفًا، أى من الدراهم»[3].

هذا.. وما أعظم قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إى وربى لو كنا نعقل فما أعظم تـشريع الله تعالى، وما أجمل حكـمه، وما أبلغ قوله، لقد كان الناس في الجاهـلية قبل الإسلام يقولون فى

(١) سورة البقرة: [١٧٨].
(٢) رواه الترمذى وأبو داود.
(٣) رواه أصحاب السنن.

هذا المعنى: القتل أنفى للقتل، ولكن إن دلت على نفس المعنى، فكيف الفارق فى الأسلوب، وبلاغة الجملة، وعدم تكرار الكلمة، وبيان أن القصاص ليس أنفى للقتل فحسب، بل هو حياة بما تعنيه الكلمة حسيًا ومعنويًا، ولكن لا يعرف هذا إلا أولوا الألباب، وذووا العقول النيرة، ﴿**وما يعقلها إلا العالمون**﴾.

وحديثًا.. وقف مستشرق أمام هذه الآية من كتاب الله تعالى لم يدر معناها، ولم يدرك المقصود منها، وهو يتساءل: كيف يكون القصاص حياة؟ كيف وبعد أن كان القتيل واحدًا، صارا بعد القصاص ـ قتيلين، ثم لم يجد جوابًا، حتى قتل أخوه، وجىء بالقاتل، وفي يوم الحكم عليه، عزم هذا الإنسان على أن القضاء إذا حكم بالإعدام على قاتل أخيه فإنه يرضى، وإن لم يكن كذلك فسيقتل هو بنفسه قاتل أخيه، ولو أن يقتل فيه، فلما حكمت المحكمة بإعدام قاتل أخيه أدرك أنه عادت إليه الحياة بعدم قتل القاتل، وبقتله هو فيه، وهنا أدرك معنى الآية ﴿ وَلَكُمْ

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ..﴾ فأسلم لله رب العالمين.

وهذا القصاص مع القتل العمد، وبجواره إما الدية وإما العفو، أما القتل الخطأ فليس فيه إلا الدية، أو العفو من أهل المقتول، كما قال تعالى: ﴿..وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

ثانيا: مما يبيح القتل شرعا ﴿إلا بالحق﴾، الإفساد فى الأرض وإعلان الحرب على الله وعلى رسوله، والإعراض عن المنهج والشرع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ

(١) سورة النساء [٩٢].

يُنفَوْا منَ الأَرْضِ ذَلكَ لَهُمْ خزْيٌ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ في الآخرَةِ عَذَابٌ عَظيمٌ ﴾[1] .

فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وكرهوا ما أنزل الله، وأعلنوا الحرب على الله ورسوله، وسَعَوا فى الأرض فسادًا، يبغونها عوجا، وقطعوا السبيل، وقتلوا وروعوا وسرقوا. . ، لاجزاء لهم إلا القتل أو الصلب أو النفى ـ كما بين الله تعالى ـ وذلك حسب جرمهم، أو يختلف باختلاف جريمتهم ـ على تفصيل فى كتب الفقه ـ، وذلك مجرد خزى لهم فى الدنيا، بخلاف عذاب الآخرة، ﴿ . .ولَعَذَابُ الآخرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

ثالثًا: قتال أئمة الكفر، الذين يحولون دون إيمان الشعوب كما قال تعالى: ﴿ . .فَقَاتلُوا أَئمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[3] ومثلهم: المشركون الذين يقاتلون المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ . .وَقَاتلُوا الْمُشْرِكِينَ

---

(1) سورة المائدة: [٣٣].

(2) سورة الزمر: [٢٦].

(3) سورة التوبة: [١٢].

كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1] .

وكذا: الكفار الذين لا يسلمون، ولا يرضون الخضوع لقانون الدولة المسلمة، فلا يريدون الإسلام، ولا يدفعون الجزية، فهؤلاء يجب قتالهم بالحق، كما قال ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد** عصم ماله ونفسه إلا بحقها وحسابهم على الله»[2].

ومثلهم: المرتد عن الدين، إما كلية، وإما بإنكار معلوم من الدين بالضرورة، كما قال ﷺ: **«لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[3].

أو من ترك الصلاة، ومنع الزكاة، فإنهم يقاتلون حتى يتوبوا ويثوبوا، كما قال رب العالمين **﴿ ..فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ..﴾**[4] كما قال

---

(١) سورة التوبة: [٣٦].

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(٤) سورة التوبة: [٥].

عنهم: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ..﴾[1].

رابعًا: قتل الزانى المحصن «أى المتزوج» رجمًا بالحجارة.

وذلك لقوله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان محصن يرجم، ورجل قتل متعمدًا فيقتل، ورجل خرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض»[2] وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال - وهو محصور - : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس» فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلاً منه بعد إذ هدانى الله، ولا قتلت نفسًا، فبم تقتلونى؟[3].

(١) سورة التوبة: [١١].

(٢) رواه أبو داود والنسائى عن عائشة.

(٣) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة.

وقد سبق الكلام عن القصاص لمن قتل عمدًا، وكذا عن المرتد عن الدين، وهنا بقى الثالث «الثيب الزانى» كما ذكر فى الحديث الأول، أو «الزانى المحصن» كما فى الحديث الثانى، أو «زنى بعد إحصانه» كما فى الحديث الثالث، وكلهم بمعنى واحد يدل على التفرقة فى الحد بين الشاب غير المتزوج الذى حده الجلد مائة جلدة، والتغريب لمدة عام - على خلاف فيه، وبين المتزوج الذى عنده ما يعفه فى الحلال فيترك هذا ويبحث عن الحرام، فهو عنصر خبيث فى المجتمع، كالمرض الخبيث يجب بتره، ومن هنا كان حده الرجم بالحجارة - كالكلاب - حتى يموت، ودليله آية منسوخة لفظا وباقية حكما «الشيخ والشيخة - أى المتزوج والمتزوجة - إذا زنيا فارجموهما البتة..» وهذه الأحاديث، وفعله ﷺ مع ماعز، والغامدية، والجهينية، فهذا أمر مقرر شرعًا، بالقرآن والسنة، وعليه إجماع الأمة، ولله الحمد والمنة.

وكذا يقتل أصحاب الشذوذ الجنسى، الذين يعملون

عـمل قوم لوط، وذلك فى الحـديث «من وجدتموه يعـمل عمل قوم لوط فاقـتلوا الفاعل والمفعول به»[1] وقـد يكون هذا من باب الحد أو التـعزير، وصورتـه أنه يؤتى بصاحب تلك الجريمة فيلقى به من على جبل شاهق، تـشبها بعقوبة الله تعالى لـقوم لوط ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[2].

خامسا: قتال أهل الظلم والبغى

كقتال الـطائفة الباغية حتى ترجع إلى الله تعـالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[3].

وكقتال من فـرق بين المسلمين، وسعى بالخلاف بينهم، أو شق عصا المسلمين وخـالف إمام جماعـتهم لقول النبى

---

(1) رواه أبو داود عن ابن عباس.

(2) سورة هود: [٨٢].

(3) سورة الحجرات: [٩].

ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[1] وكقوله ﷺ: «من جاءكم وأمركم واحد يريد أن يشق عصاكم فاقتلوه»[2].

هذا ولم نرد التوسع فى ذكر ذلك وبيان أحكامه وتفصيلاته، لأن كلامنا هنا أريد به الموعظة من خلال تلك الوصايا وشرحها للناس مع أخذ العظة والاعتبار، لا لبيان الأحكام ودقائق الأخبار، كما أردنا بذلك تشخيص الداء ووصف الدواء، لما تعانيه الأمة من الأدواء، سيما وقد انتشر هذا الداء العضال فى الأمة انتشار النار فى الهشيم مع ذلها ومهانتها وهزيمتها، أعمل فيها الأعداء القتل والنهب مع سلب الأرض وانتهاك العرض، وأخذ المال، وضياع العيال، ولم يكتف الأعداء بهذا، حتى قام عملاؤهم بمثل هذا، أو زادوا عليه، وحققوا قول القائل:

أسد عليَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

والله، إنه لمرض خطير، وأمر شنيع هذا الذى يحدث

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم (بنحوه).

فى أمتنا الآن من إراقة الدماء فى كل مكان، من أبناء هذا الدين ومن أعدائه، فصرنا بين مطرقة الأعداء، وسندان العملاء، مع سكوت العلماء، وجهل الأبناء، وفقدان الولاء لرب الأرض والسماء، ولسيد الأنبياء، وكذا المؤمنين الذين صرنا عليهم أعزاء، كما صرنا بالنسبة للكافرين أذلاء، فقلبنا منهج أحكم الحكماء، إذ قال: ﴿ ..أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.. ﴾[1] كما قال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. ﴾[2] فأين نحن من هذا؟ .

تذييل الآية ﴿ ..ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

أى ما سبق من وصايا، أولها النهى عن الشرك، وثانيها الإحسان إلى الوالدين، وثالثها النهى عن قتل الأولاد، ورابعها النهى عن قرب الفواحش، وخامسها النهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، فذلكم مما وصاكم الله تعالى به لعلكم تعقلون.

---

(١) سورة المائدة: [٥٤]. (٢) سورة الفتح.

﴿ ..ذلكم.. ﴾ اللام فى «ذلكم» للدلالة على بعد مدى ما تدل عليه الوصايا المشار إليها فى الحكم والأحكام، والمصالح الدنيوية والأخروية، أو بعدها عن متناول أوضاع الجاهلية ولا سيما مع الأمية.

﴿ ..وصاكم.. ﴾ والوصية: ما يعهد إلى الإنسان أن يعمله من خير أو ترك شر، بما يرجى تأثيره، ويقال: وصاه وأوصاه، وقال الراغب الأصفهانى: هى عبارة عما يطلب من عمل مقترنًا بوعظ، ومن الذى وصى؟ الله تبارك وتعالى، أى وصاكم الله بذلك لما فيه من إعدادكم وباعث الرجاء فى أنفسكم لأن تعقلوا ما فيه من الخير والمنفعة فى ترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، فإن ذلك مما تدركه العقول الصحيحة بأدنى تأمل.

﴿ ..ذلكم وصاكم به.. ﴾ وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله، تقريرًا لوحدة السلطة التي توصى، والتى تأمر وتنهى فى الناس، وربطا للأوامر والنواهى بهذه السلطة التى تجعل للأمر والنهى وزنه فى ضمائر الناس.

﴿ ..لعلكم تعقلون﴾ فيه دليل على أن العقل لا يتعارض مع الشرع، ولا الشرع مع العقل، إذا أدركت العقول ووعت، وإذا هي عقلت ذلك كان عاقلا لها ومانعًا من المخالفة، وفيه تعريض بأن ما هم عليه من الشرك والمنكرات والجاهليات مما لا تعقل له فائدة، ولا تظهر للأنظار الصحيحة فيه مصلحة.

كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل، فالعقل يقتضى أن تكون هذه السلطة وحدها هى التى تُعَبِّدُ الناس لشرعتها، وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف فى حياة الناس، وهذا وذاك فوق ما فى الطائفة الأولى من التجانس مع الطائفة الثانية، جعل هذه فى آية، وتلك فى آية، وبينهما هذا الإيقاع ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ و﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾.

وكذلك قوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾ يدل على أن كل ما جاء فى هذه الوصايا لا يعارضه العقل السليم، ولا يشذ

(١) راجع بتوسع: تفسير ابن كثير، والقرطبى والظلال والمنار فى تفسير الآية.

عند الخلق الكريم، فـالعقل السليم يؤيده، والمنطق الرشـيد يعـضـده، وقد صـدق الأعـرابى عندمـا سـئل: لم آمنت بمحمد؟ فقال: لأنه لا يأمر بشىء وقـال العقل ليته ما أمر، ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته ما نهى.

وكما قال ابن عطيـة: لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عـاقل جاءت العبارة ﴿ **لعلكم تعـقلون** ﴾ والمحرمـات الأخر شهوات، وقد يقع فيها من لم يتذكر، جاءت العبارة ﴿ **لعلكم تذكـرون** ﴾ والسير فى الجـادة المستقيمـة يتضمن فـعل الفضـائل ولابد لهـا من تقـوى الله جـاءت العبـارة ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾.

فالله أكبر، إن دين محمد وكتابه أقـــوى وأقـــوم قيـــلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

* * *

الوصية السادسة

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ..﴾[1].

مدخل: وننتقل إلى الوصية السادسة - من خلال الآية الثانية - مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم فيما حرم وأوجب عليكم: «ألا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره أو تعاملتم به ولو بوساطة وصيه أو وليه إلا بالفعلة أو الأفعال التى هى أحسن ما يفعل بماله من حفظه وتثميره وتنميته ورجحان مصلحته، والانفاق منه على تربيته وتعليمه ما يصلح به معاشه ومعاده حتى يبلغ مستوى رجحان العقل وحسن التدبير.

ولأن اليتيم ضعيف فى الجماعة، بفقده الوالد الحامى والمربى، ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة، وعلى

(١) سورة الأنعام: [١٥٢]، وسورة الإسراء: [٣٤].

أساس التكافل الإجتماعى الذى يجعله الإسلام قاعدة نظامه الإجتماعى، ولقد كان اليتيم ضائعًا فى المجتمع الجاهلى، وما كثرة التوجيهات الواردة في القرآن الكريم مع تنوعها - وعنفها أحيانًا - إلا أنها تشير إلي ماكان فاشيًا فى ذلك المجتمع من ضياع اليتيم فيه، حتى انتدب الله يتيمًا كريمًا فيه، فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود، حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به «رعاية اليتيم وكفالته» على النحو الذى نراه فى هذا التوجيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ..﴾ وغيره، مما يتضح من خلال شرح تلك الوصية بإذن الله تعالى.

ونشرع فى تفسير الوصية بما يوفق الله تعالى - تفسيرًا تحليليا موضوعيًا، مراعين المأثور أيضًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا..﴾ وهنا عبر القرآن الكريم بعدم القرب أيضًا، كما عبر به فى النهى عن الزنا، والتعبير فى كلتا الحالتين فيه تحذير شديد الوعيد، ألا وهو قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. ﴾ لأن النهى هنا لا يأتى على الفعل نفسه، وإنما على قرب الفعل، وإذا كان النهى ينصب على القرب، فيكون النهى عن الفعل من باب أولى، والنهى عن قرب الشيء أبلغ من النهى عنه، لأنه يتضمن النهى عن الأسباب والوسائل التى تؤدى إليه وتوقع فيه، وعن الشبهات التى تحتمل التأويل فيه، فيحذرها التقى، ويقتحمها الطامع إذ يراها بالتأويل مما يحل له.

وإنما جاء النهى عن القرب فى هذين الذنبين «مال اليتيم، والزنا» لأن شهوتى حب المال والجنس لهما من البريق ما يغرى بالوقوع فيهما، فكانت الحكمة كل الحكمة، والجلال كل الجلال، أن يحذر القرآن من الوقوع فى القرب منهما، إذ أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ .. ﴾ فمال اليتيم منطقة خطيرة، لا أقول يجب الحذر من الوقوع فيها بالاعتداء عليها، وإنما يجب الحذر من الاقتراب منها، فلربما تأول متأول حل بعض مال اليتيم لعدم انتفاع اليتيم به، ولا حذر على اليتيم

فى أخذها، ولرجحان نفعها له على ضررها، كأن يأكل من ماله شيئًا بوسيلة له فيه ربح من جهة أخرى فى عمل لولاه لم يربح ولم يخسر.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..﴾ أى بأحسن ما يفعله بماله من صلاحه وحفظه، وتثميره له وتنميته، ورجحان مصلحته على غيره، والانفاق منه على تربيته وتعليمه، وما يصلح به معاشه ومعاده، فبأحسن الصور يحافظ عليه، ويستثمر، ويبعد عن مواطن الشبهة والحرام فلا يوضع فى البنوك الربوية، ويأخذ عليه الفوائد المحددة، كما لا يستثمر في مكان ربحه أقل، وهناك يمكن استثماره بربح أكبر وأحسن.. وهكذا.

ولكن - واحسرتاه - كيف اليتيم وكيف حاله وماله فى المجتمعات الإسلامية الآن؟!! وعلى الرغم من وجود جهاز عندنا يحافظ على إرث اليتيم مثل «الجهاز الحسبى» لكن أموال اليتيم تستثمر فى البنوك الربوية، وبفوائد محدودة، ودراهم معدودة، وهم فى ذلك من الزاهدين.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. ﴾

حتى يبلغ أشده: أى فلا يسلم له المال - الكامل النامى - إلا عند بلوغه أشده، أى عند اشتداد قوته الجسمية، والعقلية ليحمى ماله، ويحسن القيام عليه، وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضوًا نافعًا، وسلمته حقه كاملاً.

وفى الآية غاية للنهى عن هذا القرب بماله، وما فيه من المبالغة فى الترهيب عن التعامل فيه، أو غاية لما يتضمن الاستثناء، وهو ما يقابل النهى فى إيجاب حفظ ماله حتى منه هو - أى اليتيم - فإن الولى أو الوصى لا يجوز له أن يسمح لليتيم بتبديد شىء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه، ولذا اشترط ربنا ألا يعطيه المال حتى يبلغ أشده، هذا ونرى - بعيدًا عن خلاف الفقهاء والمفسرين فى معنى بلوغ الأشد - أن بلوغ الرشد يكون بمعنى: بلوغ الحلم وظهور الرشد معًا، بغض النظر عن تحديد السن، فحيثما بلغ اليتيم رشده، وقوى أشده، وأصبح محافظًا على دينه

وماله، وصارت له حنكة ومعرفة، فذاك بلوغ الأشد، ولأن الله سبحانه وتعالى قرن بينهما، فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ.. ﴾[1] فذكر بلوغ النكاح وهو سن الاحتلام، الذى يكون غالبًا بين الخامسة عشر والثامنة عشر، ويعرف بنزول الماء الدافق الذى يكون به الولد، فى المنام مع الاحتلام، كما ذكر أنس الرشد منهم وذلك يكون ببلوغه مبلغ الرجال فى الحنكة والمعرفة، مع صلاح دينهم، والمحافظة على أموالهم، وما يخرج اليتيم عن أن يكون سفيهًا أو ضعيفًا.

وإن كان تمام الأشد وكماله مع سن الأربعين، كما قال تعالى: ﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.. ﴾[2] فهذا نهاية الأشد، وليس هذا مقصودًا هنا، حتى يفهم، وينبغى أن يعلم، وإنما بلوغ أشد اليتيم يراد به قوته ومعرفته، والقوة تكون فى البدن، والمعرفة تكون بالتجربة،

(١) سورة النساء: [٦].

(٢) سورة الأحقاف: [١٥].

ولابد من حصول الوجهين لتحقق الحكمة، ولا يُمكّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة، وبعد حصول القوة، حتى لا يبدد ماله فى الشهوات، ويذهبه على أقران السوء، ويصبح فقيرًا صعلوكًا لا مال له.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. ﴾

المراد بالنهى عن قرب مال اليتيم النهى عن كل تعدٍ عليه وهضم له من الأوصياء وغيرهم من الناس، وحينئذ يظهر جعل «حتى» غاية النهى، وجعل «الأشد» بمعناه اللغوى وهو سن القوة البدنية والعقلية بالتجارب، لأن حديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأى، قليل التجارب، فينخدع كثيرًا، وقد كان الناس فى الجاهلية - كأهل هذا العصر - من أصحاب الأفكار المادية لا يحترمون إلا القوة، ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء، فلذلك بالغ الشرع فى الوصية بالضعيفين: المرأة واليتيم، وإنما كانت القوة التى يحفظ بها المرء ماله فى ذلك الزمن: قوة البدن مع الرشد

العقلى، وهو قلما يحصل بمجرد البلوغ، وأما فى هذا الزمان فلا يقدر على حفظ ماله فيه إلا من كان رشيدًا فى أخلاقه وتجاربه لكثرة الغش والحيل.

وإن سفه الشبان الوارثين - فى مصر وغيرها - مضرب المثل، فأكثر الشبان من أبناء الأغنياء مسرفون فى الشهوات، فمتى مات من يرثونه أقبل على معاشرتهم أخدان الفسق وسماسرته، ومدمنوا القمار، فلا يتركونهم إلا فقراء منبوذين، وقلما يستيقظ أحدهم من غفلته إلا فى سن الكهولة التى يكمل فيها العقل، وتعرف تكاليف الحياة الكثيرة، ويهتم فيها بأمر النسل، ونحو ذلك وغيره، فيندم ويتحسر، ولكن أينفعه الندم، أو تجدى الحسرة؟!

وإنما الدواء لهذا الداء هو تشريع رب الأرض والسماء، فما أعظمه من تشريع، وما أفضله من منهاج، وأعظمه من علاج، لو عقل الناس أو اتعظوا ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا

(٦٦) وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾[١].

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.. ﴾ تكررت بنصها مرتين، هنا في سورة الأنعام، والأخرى فى سورة الإسراء، وكلاهما سورة مكية، كما نزلت آيات أخرى فى العهد المكى بشأن اليتيم - ويعد هذا من التشريع المبكر فى مكة - فنزل قول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾[٢] من سورة الضحى التى امتن الله بها على نبيه ﷺ، وفيها ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾[٣].

كما نزلت سورة الماعون ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾[٤].

---

(١) سورة النساء: [٦٦-٧٠].
(٢) سورة الضحى: [٩].
(٣) سورة الضحى: [٦].
(٤) سورة الماعون: [١، ٢].

فجعل الله دع اليتيم - أى دفعه بشدة وجره بعنف - أول آيات التكذيب بالدين.

وأجمع ما ورد فى ذلك الشأن وآكده آيات سورة النساء، وسورة البقرة، وكلتاهما مدنى.

بادئين كلاما حول آيات سورة النساء، حيث نجد الآيات العشر الأول منها جلهن عن اليتيم، ففى الآية الأولى نجد أن الله عز وجل أوصانا بتقواه، وهى الوصية الجامعة لما سواها، ثم جعل الوصية الثانية مباشرة - فى الآية الثانية - الأمر بإتياء اليتامى أموالهم وعدم الخيانة فيها، فقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[1].

وذلك بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم مع الرشد - على ما سبق بيانه - كاملة وموفرة، مع عدم أكلها أو ضمها إلى مال الأوصياء والأولياء، كما لا يجوز استبدالها بأخذ الطيب منها وترك الخبيث، كمن يأخذ شاة

(١) سورة النساء: [٢].

سمينة ويعطى هزيلة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد، ويطرح مكانه المزيف، ويقول: درهم بدرهم، وهذا على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فالآية عامة، كما نهى الله تعالى عن أكل أموال اليتامى بصورة أخرى ﴿ ..وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ.. ﴾ أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعا، أو لا تأكلوا أموالهم بضمها إلى أموالكم كلها أو بعضها.

لماذا؟ قال تعالى: ﴿ ..إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: أى إثما عظيما، وذنبا كبيرا، والله يحذركم من ذلك.

ثم قال تعالى فى الآية الثالثة: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾[1].

فما صلة تعدد الزوجات بالقسط لليتيمات؟ إنها صورة أخرى من صور العدالة الإسلامية مع اليتامى، تفيد أن من

(١) سورة النساء: [٣].

أراد أن يتزوج بيتيمة فعليه أن يؤتيها حقها فى الصداق كاملا، وألا يبخسها من حقها شيئها، فإن كان ذلك كذلك فليتزوجها، وإن خاف ألا يعدل فى إعطائها حقها فله فى غيرها متسع، وليتزوج من غيرها، وهذه الصورة بلغت ذروة السمو فى العدالة الاجتماعية مع اليتامى، وقد جاء فى تفسير هذه الآية هذه الحديث الذى أخرجه البخارى عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما أنه سأل عائشة رضى الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى..** ﴾ فقالت: يا ابن أختى، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها، تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية فأنزل الله قوله: ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ**

اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾[1].

قالت عائشة: وقول الله فى الآية الأخرى: ﴿ ..وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ.. ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال»[2].

ـ هذا وبعد أن تحدثت الآية عن إباحة تعدد الزوجات بشرطه، والآية التى تلتها عن إعطاء المهور للزوجات، كما نهت الآية التى بعدها عن إعطاء السفهاء أموالنا التى بها قوام حياتنا مع الأمر بالتصدق منها والقول بالمعروف ـ ثم جاءت الآية السادسة، وفيها يقول الله تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا

(١) سورة النساء: [١٢٧].
(٢) رواه البخارى.

إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ..﴾ - وقد سبق الكلام عنها - ﴿..وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا..﴾.

وفيها نهى من الله تعالى عن أكل مال اليتيم فى أبشع صورة من صور الأكل وهو الإسراف والتبذير، والمبادرة بذلك قبل أن يكبر اليتامى ويبلغوا الحلم حتى يتم أكل أموالهم قبل أن تسلم إليهم.

﴿..وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ..﴾ وهذا توجيه من الله جل وعلا إلى الأوصياء على اليتامى الذين يعملون فى مالهم لتربح ربحا حلالا كالبيع والشراء والإجارة وغير ذلك من وجوه الاكتساب، فمن كان من الأوصياء غنيا فليرفع يده عن مال اليتيم، وليجعل تجارته وعمله خالصا لوجه الله، ومن كان فقيرا ليس عنده من المال ما يسافر به للتجارة مثلا، فعليه أن يأخذ من مال اليتيم أجره دون إسراف أو تبذير، أو يأكل من أقل الأمرين: أجرة مثله، أو قدر حاجته، وفى الحديث «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن عندى يتيما

عنده مـال ولـيس لى مـال، آكل من مـــاله؟ قـال: «كل بالمعروف غير مسرف»[1].

وقوله تـعالى: ﴿ . .فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[2] أى أن ذلك عند بلوغ الحلم وملاحـظة الرشد عندهم، وإنما أمـر بالإشهـاد على الدفع حـتى لا يكون هناك إنكار أو جـحـود، فـالبـينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.

﴿ . .وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى محاسبا ورقيبا وشهيدا، كما قال: ﴿ . .إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ولهذا ثبت فى الحـديـث أن رسـول الله ﷺ قـــال: «يا أبا ذر، إنى أراك ضعيـفا، وإنى أحب لك ما أحب لنفـسى، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تلين مال اليتيم»[3].

ـ وبعـد الآية السابعـة التى دلت على تشريع المـيراث، والآية الثامنة فى ذات الـباب ـ ختم القـرآن الكريم الحديث

(١) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة.
(٢) سورة النساء: [٦]. (٣) رواه مسلم.

عن اليـتامى بآيتين. فى إحـداهما ترغيـب، وفى الأخرى ترهيب، وبين نور الوعـد ونيران الوعيـد، يقف الناس من مال اليتيم موقف الحذر.

أما آية الوعد، فقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[1].

أى: يا مسلم إذا أردت أن يرعى الله أولادك من بعدك، ويحوطهم بعنايته ورعايته، فقـدم الخير لليتامى الذين فقدوا عائلهم، واتق الله وقل القول السديد، وكما قال الله تعالى أيضـًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[2].

وورد أنه لما حضـر «محـمد بن كعب الـقرظى» الموت، سـألوه: أين مالك الذى تركـتـه لأولادك من بعدك؟ قـال

(١) سورة النساء: [٩].
(٢) سورة الأحزاب: [٧١،٧٠].

لهم: لقـد ادخرت مـالى لنفسى عند ربى، وادخـرت ربى لأولادى.

وأما الآية الأخرى - والأخـيرة فى هذا السياق - ففـيها الإنذار والتـحذير، والتـرهيب والتـخويف الذى تسـيل له النفس مـرارة وألما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1].

إنها صـورة مفـزعة، صورة النار فى الـبطون، وصورة السعير فى نـهاية المطاف، إن هذا المال نار، وإنهم ليأكلون هذه النار، وإن مـصـيرهم لإلى النار، فـهى النار تشـوى البطون، وتشـوى الجلود، هى النار من باطن وظاهر، هى النار مجـسمة حـتى لتكاد تحسهـا البطون والجلود، وحتى لتكاد تراها العيون وهى تشوى البطون والجلود.

ولقد فـعلت هذه النصوص القرآنيـة بإيحاءاتها العنيـفة العمـيقة فعلهـا فى نفوس المسلمين، خلصتـها من رواسب الجـاهلية، هزتهـا هزة عنيـفة ألقت عنهـا هذه الرواسب،

(١) سورة النساء: [١٠].

وأشاعت فيها الخوف والتحرج والتقوى والحذر من المساس - أى مساس - بأموال اليتامى، كانوا يرون فيها النار التى حدثهم الله عنها - فى هذه النصوص القوية العميقة الإيحاء - فعادوا يجفلون أن يمسوها ويبالغون فى هذا الإجفال، كما ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما أنزل الله قوله ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى أحسن..** ﴾ وقوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشىء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ **..وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»[1].

---

(١) رواه أبو داود والآية من سورة البقرة: [٢٢٠].

لقد رفع المنهج القرآنى هـذه الضمائر إلى الأفق المضىء وطهرها من ظلمات الجاهلية ذلـك التطهير العجيب. ذلك أن التكافل الإجتمـاعى هو قـاعدة المجتمع الإسـلامى، والجماعة المسلمـة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفـاء فيها، واليتـامى بفقدهم آباءهم وهم صـغار ضعـاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها، ورعايتها لنفوسهم، وحمايتها لأموالهم.

ولقـد كـان بعض الأوصيـاء يخلطـون طعام اليتـامى بطعامهم، وأموالهم بأمـوالهم للتجارة فيها جمـيعًا، وكان الغبن يقع أحيانًا على اليتامى، فنزلت الآيات فى التخويف من أكل مال الأيتام، عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى عن طعـامهم - كما ذكرنا - وكـذلك تحرج البعض من كفالتهم وتأبى القيـام عليهم، ولما كان هذا تشددًا ليس من طبـيعة الإسـلام، فوق مـا فيـه من الغرم أحيـانًا على اليتيم، واعتزاله عن الناس، أو اعتزال الناس عنه، حتى إنه ليكون فى البيت كالكلب أو الداجن فى مأكله ومشربه.

ومن هنا جاءت الحيرة، واحـتيج إلى السؤال عن طريق

الجمع بين الأمـرين، والتوحيد بين المصلحـتين، بأن يعيش اليـتيم فى بيت كـافله عزيزًا كـريمًا كأحـد عيـاله، ويسلم الكافل من أكل شىء من مـاله بغير حق، وكـان من فضل الله تعالى ورحمتـه أن أنزل الوحى فى إزالة الحيرة وكشف الغمـة. فقال لـنبيه ﷺ: «قل لهـؤلاء السائلين عن القـيام على اليـتـامى وكفـالتـهم، وعن المصلحـة فى عـزلهم أو مخـالطتهم «إصلاح لهم خـير وإن تخالطوهم فـإخوانكم» يعنى إصلاح لهم خير من عدمه فلا تتركوا شيئًا مما تعلمون أن فـيـه صـلاحًا لـهم فى أمـوالهم وأحـوالهم من تربيـة وتهذيب، وهذا مـا أفاده تنكير «إصـلاح»، وإن تخالطوهم لرؤيتكم الخير لهم فى المخالطة فى المعيشة فهم إخوانكم فى الدين، وإنما شأن الإخوان المخالطة فى المعاشرة.

وقـد أزالت الكلمة الأولى فى هـذا الجواب الوجـيز شـبهـة المتأثـمين من كفالتـهم، وكشـفت الكلمة الثـانية شـبهـة القُوام المتـحرجين من مـخالطتـهم، وفى هذا الجواب عـرفنا حقـيقـة السؤال، وهذا من ضروب الإيجاز التى لم تعرف إلا من القرآن.

ومعنى أن الإصلاح لهم خير بمعنى القيام عليهم لإصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية، وإصلاح أموالهم بالتثمير والتنمية، هو خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم، خير لهم لما فيه صلاحهم، كما هو خير للقُوّام والكافلين لما فيه من درء مفسدة إهمالهم، وفى المصلحة العامة فى صلاح حالهم، ولما فى ذلك من حسن القدوة فى الدنيا، وحسن المثوبة فى الأخرى.

﴿ ..وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ.. ﴾ فمعناه لا وجه للتأثم من مخالطتهم فى المأكل والمشرب والمكسب، فهم إخوانكم فى الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونوا خلطاء وشركاء فى الملك والمعاش، ولا حذر على أحد منهم فى ذلك، بل هو نافع لهم، لأن كل واحد منهم يسعى فى مصلحة الجميع، والمخالطة مبنية على المسامحة لانتفاء مظنة الطمع وتحقق الإخلاص وحسن النية.

وقيل: المراد بالمخالطة المصاهرة، وأخوة الإسلام علة

لحلهـا، فـاليـتامـى إخوان الأوصـيـاء، كلهم اخـوة فى الإسلام، وأعضاء فى الأسـرة المسلمة الكبيرة، ﴿ ..وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ.. ﴾ فليس المعول عليه هو ظاهر العـمل وشكله ولكن نيـته وثـمرته، والله لا يريد إحـراج المسلمين وإعناتهم والمشـقة عليهم فـيما يكلفـهم، ولو شاء لكلفهم هذا العنت، ولكنه ـ سبحانه ـ لا يريد ذلك، وهو العزيز الحكيم، فهو قادر على ما يريد ولكنه حكيم لا يريد إلا الخير واليسر والصلاح.

وهكذا وضع الله عز وجل هذا المنهج لإصلاح اليتامى، فـأدى دوره، وقام المسلمـون به خيـر قيـام لما تركتـه هذه النصوص القرآنية من إيحاءات قـوية فى نفوسهم، فأكرم به من منهاج وعلاج، ولم يكتـف القرآن الكريم بما ذكرنا من آيات فى حق اليتامى، حـتى كرر الإحسان إليهم فى كـثير من الآيات، ومـثاله قوله تـعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ

حُبِّه ذَوِي القُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ.. ﴾[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ.. ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ

(١) سورة البقرة: [١٧٧].

(٢) سورة النساء: [٣٦].

(٣) سورة الأنفال: [٤١].

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1].

إلى آخـر ما ذكـره الله تعالى في قـرآنه الكريم فى حق اليتامى من كل جانب من الجوانب.

هذا.. وكمـا استرشدنـا بأيات القرآن الكريم - فى هذا المجال - فـإننا نستنـير - فى الختـام - ببعض أحـاديث النبى محمـد ﷺ، القائل - بأبى هو وأمى -: «أنا وكافل اليـتيم فى الجنة هكذا، وقال بإصبعـيه السبابة والوسطى»[2] وفـي رواية «كافل اليتيم له أو لغـيره، أنا وهو كهاتين فى الجنة، وأشار بالسبابة والوسطى. كما قال ﷺ: «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة، وأومأ بالوسطى والسبابة، امرأة آمت من زوجها ذات منصـب وجمال حبست نفـسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا»[3].

وقال عليـه الصلاة والسلام: «مـن قبض يتيـمًا من بين

(1) سورة الحشر: [7].

(2) رواه الأربعة عن سهل بن سعد.

(3) رواه أبو داود عن عـوف بن مـالك والأشجعي.

مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنبًا لا يغفر له»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل»[2].

وقد جاء هذا من جانب الترغيب، وأما على جانب الترهيب، فقد وردت أحاديث كثيرة، منها:

قوله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3].

وقال ﷺ: «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج

(١) رواه الترمذى عن بن عباس.

(٢) رواه الشيخان والترمذى عن صفوان بن سليم.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

أفواههم نارًا، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1].

كما قال السدى: يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه وأنفه وعينيه، يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم؛ فنعوذ بالله تعالى من ذلك، ومن النار وأهلها وكل ما يؤدى إليها[2].

* * *

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى برزة.

(٢) راجع بتوسع: تفسير المنار والظلال وابن كثير.

الوصية السابعة

﴿ ..وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا.. ﴾.

أى والسابع مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم أن أوفوا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم، والميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون، فليكن كل ذلك وافيا تامًا بالقسط أي العدل، ولا تكونوا من المطففين ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[١] أى ينقصون الكيل والوزن، وهم الذين توعدهم الله بالويل والهلاك فى أول السورة التى سميت باسمهم ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾[٢].

فهذا هو النهى المقابل للأمر بالإيفاء وهو لازم له، فالجملة موجزة.

---

(١) سورة المطففين: [٢، ٣].   (٢) سورة المطففين: [١].

فكلمة «بالقسط» هى التى بينت أن الإيفاء يجب أن يكون من الجانبين فى الحالين، أى أوفوا مقسطين أو ملابسين للقسط متحرين له، وهو يقتضى طرفين يقسط بينهما، فدل على أنه يجب على الإنسان أن يرضى لغيره ما يرضاه لنفسه.

وأين الذين يَدَّعُون اتباع القرآن فى هذا الزمان من هذه الوصية؟!

لا تكاد تجد فى المائة منهم بائعًا يوفى الكيل والميزان لمبتاع إذا سلم الأمر له ورضى بذمته. وهذه فى المبادلات التجارية بين الناس فى حدود طاقة التحرى والإنصاف، والسياق يربطها بالعقيدة، لأن المعاملات فى هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة، والذى يوصى بها ويأمر بها هو الله تعالى، ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية، وتذكر فى هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة، وعلاقتها بكل جوانب الحياة.

ولقد كانت الجاهليات ـ كما هى اليوم أيضًا ـ تفصل بين

العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ..﴾[1]؟!

ومن ثم يربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة وبين العبادة والمعاملة، فى أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها فى كيانه الأصيل.

فقضية الكيل والميزان، وأمر نقصانه وبخس الناس حقوقهم، ليست بالأمر الهين فى الإسلام، فهى جريمة من الجرائم الكبرى التى من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا

(١) سورة هود: [٨٧].

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

ففى الآية بدأ الدعوة بالأمر بالتوحيد في العبادة لأنه أساس العقيدة، وركن الدين الأعظم، وقَفَّى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهى عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا، لأن هذا كان فاشيًا فيهم أكثر من سائر المعاصى، فكان شأنه معهم كشأن «لوط» ـ عليه السلام ـ، إذ بدأ ينهى قومه عن الفاحشة السوء التي كانت فاشية فيهم.

فكان قوم شعيب من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أى ينقصونه، فيبخسونهم أشياءهم وينقصونهم حقوقهم، والبخس أعم من نقص المكيل والموزون فإنه يشمل غيرها

(٤) سورة الأعراف: [٨٥].

من المبيعات كالمواشى والمعدودات، ويشمل البخس فى المساومة والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل.

وكل من البخسين فاشٍ في هذا الزمان، فأكثر التجار باخسون مطففون، فيما يبيعون وفيما يشترون، فلما انسحبت تلك الجريمة على أقوام - قلدوا فيها قوم «شعيب» تقليدًا أعمى - أنزل الله عز وجل فيهم تلك الآيات ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

وفى الحديث عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك[٢].

---

(١) سورة المطففين: [١:٦].

(٢) أخرجه النسائى وابن ماجة.

وقد تعدد الأمر بإيفاء الكيل والميزان فى القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[2].

كما قال تعالى أيضًا: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[3].

فعدم ايفاء الكيل أو الوزن فيه بخس لحقوق الناس، وكفى بهذا ظلمًا وافتراءًا، كما أنه يكون سببًا لجلب العذاب، كما حدث مع قوم شعيب، حيث أخذتهم الرجفة مع الصيحة فأصبحوا فى دارهم جاثمين، ومن صور العذاب التى تلحق بهذه الأمة، ما قاله ﷺ فى الحديث:

(١) سورة الإسراء: [٣٥].
(٢) سورة الشعراء: [١٨١:١٨٣].
(٣) سورة الرحمن: [٧:٩].

«.. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان»[1] هذا وبوقوع نقصان المكيال والميزان ترتب عليه العذاب بالسنين أى الفقر، وشدة المؤنة أي الغلاء وجور السلطان أى الظلم، والكل واقع فى الأمة بأوضح صورة، وأوفر نصيب!!

﴿..وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ..﴾ دعوة لحسن المعاملة.

نعم.. إنه الدين الذى لم يفرق بين العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والأخلاق، فالإسلام يربط المعاملات بالعقيدة، كما رأينا فى دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) سورة الأعراف: [٨٥].

كما قال تعالى أيضًا: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾[1].

إنه دين كما ربط بين العقيدة والمعاملة، كذا ربط بين العبادة والمعاملة، ولذلك قال قوم شعيب له: ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾[2] لقد أرادوا أن يحدثوا انفصامًا فى الدين، بين العبادة والمعاملة، أو بين العبادة والاقتصاد، كالذين فصلوا بين الدين والسياسة، وكيف هذا وثمرة العبادة تظهر فى المعاملة.

---

(١) سورة هود: [٨٤:٨٦].
(٢) سورة هود: [٨٧].

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة لتطهير النفوس وتزكيتها، والصوم يورث التقوى، والحج فيه البعد عن الرفث والفسوق والجدال، فنجد التلازم والترابط بين العبادة والمعاملة والأخلاق، وكل ذلك متصل بالأساس الأول وهو العقيدة الصحيحة، والتوحيد الخالص.

إن الإسلام لا يعرف هذا الانفصام النكد بين شعائره وشرائعه، أو بين عباداته ومعاملاته وأخلاقه، الدين كلٌّ «لا يتجزأ»، لا يحب الدين أناسًا كالملائكة في عباداتهم، ولكن كالشياطين فى معاملاتهم، وهذه الأصناف كثيرة الآن فى حياة المسلمين، فهو إذ يصلى ويحافظ على الصلوات فى المسجد وترى عليه سمات الصلاح، فإذا عاملته وجدت شيئًا آخر يختلف تمامًا، ثم هو يقول: هذه نقرة وتلك نقرة، وينطبق عليه المثل: يصلى الفرض وينقب الأرض!!

لا .. يا عباد الله، هلا من إفاقة وصحوة نفهم بها طبيعة هذا الدين الذى جعل حسن المعاملة فى البيع والشراء

ونحو ذلك من أخص خصائصه التى لا تنفك عنه، وهل لو عرف المسلمون هذا المعنى، وعاشوا بهذا العلم، أيكون هذا حالهم؟! وقد ترتب على الغش والتطفيف وإخسار الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم ما جاء فى الحديث من عقوبة السنين أى الفقر، وشدة المؤنة أى غلاء الأسعار، وجور السلطان، وعن هذا حدث ولا حرج، ليس على مستوى قطر واحد، بل على مستوى العالم كله، ولا فرج ولا مخرج إلا مع العودة إلى هذا الدين.

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا..﴾.

قال صاحب المنار: هذه جملة مستأنفة لبيان حكم ما يعرض لأهل الدين والورع من الأمر بالقسط فى الإيفاء، فإن إقامة القسط أمر دقيق جدًا، لا يتحقق فى كل مكيل وموزون إلا إذا كان بموازين كميزان الذهب الذى يضبط الوزن بالحبة وما دونها، وفى التزام ذلك فى بيع الحبوب والخضر والفاكهة حرج عظيم يخطر ببال أهل الورع السؤال عن حكمه؛ فكان جوابه أن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا

وسعها، وإلا ما يسعها فعله بأن تأتيه بغير عسر ولا حرج، فهو لا يكلف من يشترى أو يبيع ما ذكر من الأقوات ونحوها أن يزنه ويكيله بحيث لا يزيد حبة ولا مثقالاً، بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له أو عليه على حد سواء بحسب العرف، بحيث يكون معتقداً أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به عرفا، وقاعدة اليسر وحصر التكليف بما فى وسع المكلف وما يقابله من رفع الحرج ونفى العسر، من أعظم قواعد هذا الشرع المبنى على أقوى أساس من الحق والعدل، فلا يساويه فيه قانون من قوانين الخلق ﴿ ..وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.. ﴾[1].

كما قال تعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[2] كما قال سبحانه:

(١) سورة الحج: [٧٨].　　(٢) سورة البقرة: [٢٨٦].

﴿ ..لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا.. ﴾[1] هذه طبيعة هذا الدين العظيم، وهذا جمال تشريعه وأحكامه.

﴿ ..وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا.. ﴾ وصية عظيمة، ولو عمل المسلمون بهذه الوصية لاستقامت أمور معاملاتهم، وعظمت الثقة والأمانة فيهم، وبينهم، وكانوا حجة على غيرهم من المطففين والمفسدين، وما فسدت أمورهم وقلت ثقتهم بأنفسهم، وحل محلها ثقتهم بالأجانب الطامعين فيهم إلا بترك هذه الوصية وأمثاله، ثم نجد بعض المارقين الجاهلين منهم يهذون ويقولون: إن ديننا هو الذى أخرنا وقدم غيرنا.

وقد قص الله علينا فيما قص من أنباء الأمم السابقة لنعتبر ونتعظ، وما أهلك قوم شعيب إلا بظلمهم وفسادهم، سيما فى الكيل والميزان، وهذا أمر هلكت فيه أمم سلفت، فعلى هذه الأمة أن تفيق قبل فوات الأوان.

وكما قال شعيب لقومه: ﴿ ..إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2].

(1) سورة الطلاق: [7].   (2) سورة هود: [88].

الوصية الثامنة

﴿ ..وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ.. ﴾.

أى والثامن مما أتلوه عليكم من وصـايا ربكم أن تعدلوا فى القول إذا قلتم قولاً فى شهادة أو حكم على أحد، ولو كـان المقول فى حـقـه ذلك القول صـاحب قـرابة منكم، فالعـدل واجب فى الأقوال، كـما أنه واجب فى الأفـعال كالوزن والكيل، لأنه هو الذى تصلح به شئون الناس، فهو ركن العمران، وأساس الملك وقطب رحى النظام للبشر فى جميع أمورهم الاجتماعـية، فلا يجوز لمؤمن أن يحابى فيه أحدًا لقرابته ولا لغير ذلك، وقد فصل الله تعالى هذا الأمر الموجز بآيتين مدنيتين:

أولاهمـا: قوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُـونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا

الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

ونشير إلي هاتين الآيتين ـ بشيء من التفصيل ـ حتى نتبين معناهما فقوله تعالى فى آية سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ.. ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أى بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالاً ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين، متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله ﴿ ..شُهَدَاءَ لِلَّهِ.. ﴾ كما قال الله ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ

(1) سورة النساء: [١٣٥]. (2) سورة المائدة: [٨].

تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿ ..وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ.. ﴾ أى اشهد شهادة الحق ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه.

وقوله ﴿ ..أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ.. ﴾ أى لا ترعى غنيًا لغناه، ولا تشفق على فقير لفقره، فالله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله ﴿ ..إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا.. ﴾ أى فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم علي ترك العدل فى أموركم وشئونكم - بل الزموا العدل على أى حال، ولو كان مع من تبغض، كما ذكرته آية المائدة ﴿ ..وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.. ﴾.

وقوله ﴿ ..وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا.. ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: ﴿ تَلْوُوا ﴾ أى تحرفوا الشهادة وتغيروها

و«اللىّ» هو التحريف وتعـمد الكذب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ..﴾[1].

والاعراض هو كتمان الشهادة وتـركها، كما قال تعالى: ﴿..وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ..﴾[2].

وقال النبى ﷺ «خير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها»[3].

ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿..فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وسيجاريكم بذلك، فلئن أفلت الإنسان من عقوبة الدنيـا، فلن يفلت من عـقوبة الآخـرة، ولئن اسـتطاع أن يشـهـد زورًا ويكذب على الخلـق، فـإن الخـالق عليم بمن خلق، وهو خبير وعليم ولطيف، دق علمه، وعلم الظاهر والخفى، ولا يخـفى عليه شىء، فاحـذروا غضبه وعـقابه بتحريف الشهادة، أو كتمانها، أو المجاملة فيها، أو المحاباة لأحـد، لأى سبب من الأسـبـاب كالقـرابة، أو المجـاملة للغنى، والشفقة على الفقير، أو غير ذلك.

---

(١) سورة آل عمران: [٧٨].
(٢) سورة البقرة: [٢٨٣].
(٣) رواه الإمام أحمد.

وأما قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ..﴾ أى كونوا قائمين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا شهداء بالقسط أى بالعدل لا بالجور، وقد ثبت فى الصحيحين عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - أنه قال: نحلنى أبى نحلة «أى: أعطانى عطية» فقالت أمى «عمرة بنت رواحة»: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فجاءه ليشهده على صدقتى، فقال" «أكل ولدك نحلت مثله؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم، وقال: إنى لا أشهد على جور» قال: فرجع أبى فرد تلك الصدقة»[1].

وقوله تعالى: ﴿..وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ..﴾[2] اى لا يحملنكم بغض قوم علي ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل مع كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا.

(١) متفق عليه.

(٢) سورة المائدة: [٨].

ولهذا قال ﴿ ..اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.. ﴾ أي عدلكم أقرب للتقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذى عاد الضمير عليه، كما فى قوله تعالى: ﴿ ..وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ.. ﴾[1] ونظائره فى القرآن.

ورضى الله عن «عبد الله بن رواحة» - الذى طبق هذه الآية عمليًا - حين بعثه النبى ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىّ، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حبى إياه، وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم»، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

﴿ ..وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فراقبوا الله تعالى فى كل شىء، واحرصوا على العدل وحافظوا عليه حتى مع عدوكم، فالعدل أساس الملك، وهو الميزان الذى قامت عليه السموات والأرض، وانبنت الشرائع عليه.

---

(١) سورة النور: [٢٨].

إنه العدل الذى لا يظلم عدوًا، ولا يجامل فقيرًا، ولا يحابى قريبًا ولا حتى والدين، ذلك هو العدل الذى يأمر به الإسلام على أى الحالات وسائر الوجوه، وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى ساحق رفيع، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته.. فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى، الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل، وفى قوة القرابة سند لضعفه، وفى سعة رقعتها كمال لوجوده، وفى امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده، ومن ثم يجعله ضعيفًا تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس، وهنا فى هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه، وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد..

إنه العدل ـ بكل مـا فيه من مـعانى سامقـة ـ الذى قام الإسلام عليه.

وما أحوجنا إلى العدل، فالأمـة كلها ظمأى تريد رشفة من العدل.

ومن جوامع كلم القرآن الـكريم، قوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(٢).

العدل: وما أدراك ما العدل؟

إنه اعطاء كل ذى حق حقـه دون بخس، ووضع الأمور فى نصابهـا دون جور، إنه قول كلمـة الحق دون خوف إلا من الله، العدل فى الفعال والمقال، العدل وضده الظلم.

---

(١) سورة النحل: [٩٠].

(٢) سورة النساء: [٥٨].

العـدل مع من نحب، والعـدل مع من نبغض، وعـدم ظلم من نبغض أو نكره، أو محاباة من نحب أو يقرب لنا بصلة قرابة حتى بلغ من عظمة القرآن وتربيته وتوجيهاته أن نزل تسع آيات كـاملة من أجل تبـرئة يهودى اتهم ظلمـًا. من؟ يهودى، إى وربى!!

حيث لفـقت له تهمة الـسرقة، وأصـبحت كل الدلائل تشيـر إلى اتهام اليـهودى، وجـسم الجريمة فى بيـته، وهو الدرع المســروق، حـتى كـاد النبى ﷺ أن يحـكم على اليهـودى ويبرىء سـاحة «ابن الأبيـرق» ويدافع عنه، وهنا تنزل القرآن الكريم.

وفيه قول رب العالمين: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[١].

الله أكبر: كل هذه الآيات لتبرئة ساحة يهودى يسب الله ويؤذى رسوله ويعـادى المؤمنين؟! نعم.. إنه العدل، ونعم العدل هو[٢].

العدل فى الإسـلام، يبلغ هذه الدرجة حـتى مع العدو،

(١) سورة النساء: [١٠٥:١١٣].

(٢) جاهلية القرن العشرين للأستاذ محمد قطب ص ٢٤٨، وواقعنا المعاصر له أيضًا ص٦٦:٦٨ بتصرف.

وخاصة مع اليهودى، وتـلك صورة للتطبيق العملى، تلك التى سـبـقت مع «عــبـد الله بن رواحـة» رضى الله عنه، وأخرى مع «على بن أبى طالب» رضى الله عنه ـ كانت بينه وبين يهودى خصومة، وحضرا مجلس «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ ليقـضى بينهما، فلما تمثـلا بين يديه، قال عمـر لعلى: يا أبا الحسن، قم بجـوار خصـمك، وبعد أن قضى بينهـما رأى علامات الأسى على وجـه «على»، فقال له: مالى أراك حـزينًا؟ قال على: لأنك لم تسـو بينى وبين خصمى، حيث ناديتنى بكنيتى قائلاً: يا أبا الحسن، وناديت على اليهودى باسمـه، وفى النداء بالكنية تكريم، فليتك إذ كنيتنى كنيته، أو إذ ناديت عليه باسمه ناديتنى باسمى»[1].

الله أكبر: أسمعت بعدالة وصلت إلى هذا المدى الرفيع، وإلى هذا السمو والطهارة والنظافة؟ إنها عدالة الإسلام، وكفى بها.

عدالـة الإسلام التى جـعلت عليًا بن أبى طالـب ـ مرة أخرى ـ وهو خليفـة المسلمين، كان يركب جمله الأورق،

(١) نقلا سماعيا عن بعض العلماء.

وعليه درعــه، ثم نزل لقضاء حاجــته بعيدًا، فــجاء يهودى فسرق الدرع ومضى، حتى أدركه سيدنا على، والرجل معه الدرع، فــقال على: يا هذا، هات الدرع الذى أخــذته من فوق الجمل، فقــال الرجل: بل هو درعى من زمن!، فقال على: فتعال للقضاء إذن، فــأخذه إلى قاضيه «شريح» وقد سمع القضية من «على» أمــير المؤمنين، ثم سأل «القاضى» اليهــودى: ما تقول فــيما سمــعت من أمير المؤمنين؟ فــقال اليهــودى: الدرع درعى، وما أميــر المؤمنين عندى بكاذب ـ يمسك العــصــا من النصف، ولكن كــيف هذا؟!! ـ فقــال شــريح: هل من بينة يا أميــر المؤمنين؟ فــضــحك «على» وقال: مــا عندى بينة يا شريح، فحــكم القاضى بأن الدرع لليهودى، وهنا تملك اليــهودى العجب من هذا العدل الذى جعل أمير المؤمــنين يفعل هذا، فى الوقت الذى يستطيع أن يأخــذ درعــه بالقــوة، أو أن يقــتل الرجل أو غــيــر ذلك، وأعجب منه مــوقف القاضى الذى يسأل أمــير المؤمنين عن البــينة فلا يجــدها فيــحكم لليهــودى، مع أنه لا يمكن أن

يكذب أمير المؤمنين من أجل درع، وهو الذى يحكم الدنيا آنذاك بأسرها، لذلك وقف بعد أن انتهت القضية، ثم قال: أمير المؤمنين يقاضينى عند قاضيه، ولا يجد البينة، وقاضيه يحكم لى، والله إنها لأخلاق الأنبياء، يا أمير المؤمنين: الدرع درعك، لما خرجت من جملك الأورق تبعتك وسرقت الدرع، فها هى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقال على: أما وقد أسلمت فهى لك[1].

الله أكبر: أهذا حلم أم علم؟ خيال أم حقيقة؟ نقول: بل هذا ديننا وهذا عدل الإسلام.

وبمقدار ما يدعو الإسلام إلى العدل ويحث عليه، ينهى عن الظلم ويحذر من عواقبه الوخيمة، سيما الظلم الاجتماعى، ولقد كان الإمام «ابن تيمية» - رحمه الله - يقول: «إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، ثم يتلو قوله تعالى:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٨ ص٦،٥ بتصرف.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1].

والمستقصى لآى القرآن الكريم يجد هذه الحقيقة واضحة وضوحًا لا لبس فيه، وهذه الحقيقة هى: أن سبب إهلاك الله للأمم هو «الظلم».

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[3] كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا.. ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ ..وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[5] إلى آخر الآيات فى هذا المعنى، ثم ينذر ربنا الظالمين بسوء العاقبة، فيقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)

---

(1) سورة هود: [117].

(2) سورة الحج: [45].

(3) سورة الحج: [48].

(4) سورة يونس: [13].

(5) سورة القصص: [59].

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾[1] كما قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ

(١) سورة إبراهيم: [٤٢:٥٢].

أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] كما جاء فى سنة النبى ﷺ ما يحذر من الظلم ويبين سوء عاقبته كما قال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2] وقال ﷺ: «من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين»[3] وقال عليه الصلاة والسلام: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[4] كما قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[5] وقال ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس

---

(١) سورة النمل: [٥٠-٥٢].

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه «عن ابن عمر».

(٤) رواه البخارى «عن أبى هريرة».

(٥) رواه الأربعة «عن ابن عمر».

فينا من لا درهم له ولا دينار، فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار»[1] وقال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىَّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم «أخيه» فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها»[3] كما قال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دمائهم، واستحلوا

(٢،١) رواه مسلم والترمذى «عن أبى هريرة».

(٣) رواه الجماعة «عن طلحة».

محارمهم»[1] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلي النبى ﷺ فقال يا رسول الله: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال: «فلا تعطه مالك» قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «قاتله» قال: أرأيت إن قتلنى؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هو فى النار»[2] وقال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة لها، ربطتها، فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً»[3] وقال ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» - وفى رواية - «ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»[4].

إلى آخر الأحاديث التى وردت فى هذا الباب، ولولا الإطالة لاستطردنا، وكذا لوقفنا مع هذه الأدلة شرحًا وتوضيحًا، ولكنا نذكر ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ

---

(١) رواه مسلم «عن جابر رضى الله عنه».

(٢) رواه مسلم.

(٣،٤) رواه الشيخان.

﴿تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وكما قال ربنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

فالعدل العدل فى الحب والبغض، وفى الرضا والغضب، وإياكم والظلم، إن كان للنفس أو للغير، ظلم الشعوب، وظلم الضعفاء، وظلم الأزواج، احذروا الظلم بكل صورة، كبيرة وصغيرة، فإن الظلم ظلمات مجتمعة.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلي الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

الظلم الذى دمر الحضارات، وأزال الدول، وأسقط الإمبراطوريات، فدولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

فيا ويل أمريكا، ويا ويل روسيا، ويا ويل إسرائيل، ويا ويل بريطانيا وأوروبا.

أما شبعوا من إراقة الدماء، أما اكتفوا بظلم الضعفاء،

---

(١) سورة الذاريات: [٥٥]. (٢) سورة ق: [٣٧].

وتشتيت الأبرياء؟!! أين - ما يقال عنها - محكمة العدل الدولية؟ وهيئة الأمم؟ ومجلس الأمن؟ أهى أمم أم لمم؟ أهو أمن أم فزع؟! ما هذا الظلم الذى عم وطم؟ وإلى متى يارب؟ قريبًا جدًا يتحقق قول الله تعالى: ﴿..حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١] وكما ملئت الأرض ظلمًا وجورًا، فإنها بإذن الله تعالى ستملىء قسطًا وعدلاً، كما بشر المصطفى ﷺ: «يخرج رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى، وخُلقه خُلقى، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت ظلمًا وجورًا»[٢].

فاللهم نصرك وفرجك، وحقق فينا وعدك وموعودك، وعاملنا بفضلك وكرمك، ولا تعاملنا بذنوبنا وتقصيرنا، إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير[٣].

---

(١) سورة الأنعام: [٤٤،٤٥].

(٢) رواه ابن حبان وغيره بروايات مختلفة صحيحة.

(٣) راجع بتوسع: تفسير ابن كثير، والظلال والمنار، والصحيحين والسنن الأربعة.

الوصية التاسعة

﴿..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أى والتاسع مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم أن توفوا بعهد الله من غير خُلف، وهو يشمل ما عهده الله تعالى إلى الناس مباشرة، أو على ألسنة رسله، مدونًا فى كتبه التى أنزلنا عليهم، وبما آتاهم من العقل والوجدان والفطرة السليمة، وما يعاهده الناس عليه، وما يعاهد عليه بعضهم بعضًا فى الحق موافقًا للشرع.

ونتعرف بداية ـ على معنى «الوفاء بالعهد»:

«الوفاء» بمعنى الكمال والتمام، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ..﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: [٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿ ..وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ.. ﴾[1].

ووردت بمعنى «الخلق الشريف الرضى» يقال: فلان شخص ذو وفاء، أى ذو خلق حميد.

كما استعملت بمعنى «البر وعدم الغدر» يقال: وَفَّى فلان بعهده، وأوفى به، أى لم يغدر ولم يخن.

أما كلمة «العهد» فقد جاءت بمعنى «الميثاق» سواءً أكان بين الله تعالى والناس، أم بين الناس بعضهم البعض.

وجاءت بمعنى «العقد» وبمعنى «الوصية» وبمعنى «اليمين»، وبمعنى «الذمة»، وبمعنى «الأمانة» وبمعنى «الحفاظ ورعاية الحرية» وبمعنى «الوعد»[2].

والوفاء بالعهد من المبادىء التى أمر بها الإسلام، وحث على التمسك بها، فالمسلمون مطالبون بالوفاء بالعهود التى يقطعونها على أنفسهم، والعقود التى يعقدونها والمواثيق

(1) سورة النور: [٣٩].

(2) لسان العرب لابن منظور، بتصرف.

التى يتواثقـون عليها مـا غلظ منها وما دق، سـواءً أكانت تلك العـهود بين العبـد وربه، أو بينه وبين نفسـه، أو بينه وبين الناس، ما دامت تجـرى فى إطار شريعـة الله تعالى، والناس جمـيعًا مسئـولون عن عهودهم ومواثقـيهم، ومن وفى كان له جزاء وفائه، ومن نقض كـان عليه إثم نقضه، كما قـال تعالى: ﴿ ..فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

كـمـا قـال تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُـوا بِالْعُقُودِ.. ﴾[2].

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهـما ـ: إن المراد بالعقود: عهود الله تعالى التى عهـد بها إلي عباده، أى ما أحل وما حرم، وما فرض، وما حد، فى القـرآن كله، لا غدر فيها ولا نكث.

(١) سورة الفتح: [١٠].	(٢) سورة المائدة: [١].

وقال الراغب: العقود ثلاثة أضْرُب:

(١) عقد بين الله وبين العبد.

(٢) عقد بين العبد ونفسه.

(٣) عقد بينه وبين غيره من البشر.

وكل واحد منها إما أن يوجبه العقل الذى أودعه الله فى الإنسان ويتوصل إليه ببديهة العقل أو بأدنى نظر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا..﴾[1].

وإما أن يوجبه الشرع وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة «أوفوا بالعقود» أى أنه يجب علي كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل، كما أمر الله ما لم يحرم حلالا، أو يحلل حرامًا، كالعقد على أكل شىء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر «القمار» والرشوة ونحو ذلك»[2].

(١) سورة الأعراف: [١٧٢].

(٢) تفسير المراغى جـ٦ صـ٤٣ بتصرف.

وقـــال تعـــالى: ﴿ ..وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾[1].

أى أوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها.

وقـال الزَجَّاج: كل مـا أمر الله بـه ونهى عنه فهـو من العهـد، ويدخل فى ذلك ما بين العـبد وربه، وبين العـباد بعضـهم البعض، والـوفاء به: القيـام بحفظه علـى الوجه الشرعى والقانون المرضى.

﴿ ..إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ إن الله سائل ناقض العهد عن نقـضه إياه، فـيقـال للناكث له على سـبيل التـبكيت والتوبيخ: لم نكثت عهدك وهلا وفيت به؟

وفى الآية نكتـة بلاغـية وهى تجـسيـم العهـد المعنوى، وجعله فى صورة المسئول والمُحَاسب.

---

(1) سورة الإسراء: [٣٤].

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا.. ﴾(1).

قال المراغى: أى أوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقًا لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه، ويدخل فى ذلك كل عهد يلتزم الإنسان باختياره، والوعد من العهد، ومن ثم من عاهدته وفِ بعهده مسلمًا كان أو كافرًا فإنما العهد لله تعالى.

وقال القرطبى: وهذا عام فى جميع ما عهده الله إلي عباده، ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به.

*** ومن العهود التي أخذها الله علي عباده ـ كما هى مسطرة فى القرآن الكريم:**

١ ـ عهد الله لآدم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾(2).

---

(1) سورة النحل: [٩١].

(2) سورة طه: [١١٥].

٢ ـ عهد الله على بنى آدم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[1] كما قال تعالى أيضًا: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].

٣ ـ عهد الله للأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: [١٧٢، ١٧٣].
(٢) سورة يس: [٦٠].
(٣) سورة الأحزاب: [٧].
(٤) سورة آل عمران: [٨١].

٤ ـ عهد الله على العلماء: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[1].

٥ ـ عهد الله على بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.. ﴾[3] وأخذ عليهم الميثاق أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[4].

وتوالت العهود والمواثيق والوصايا، وتوالى الأمر بالوفاء بها، فكان منها ما سبق ذكره.

كما امتدح الله المؤمنين الذين صدقوا فى امتثالهم لهذا

(١) سورة آل عمران: [١٨٧].
(٢) سورة البقرة: [٦٣].
(٣) سورة البقرة: [٨٣].
(٤) سورة البقرة: [٨٤].

الأمر ووفائهم بالعهد، فى آيات كثيرة، منها ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ ..وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا.. ﴾(2).

وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾(3).

وحيث امتدح الله المؤمنين على وفائهم بالعهد، ذم الكافرين وأهل الكتاب والمنافقين على خلفهم الوعود، ونقضهم العهود، سيما اليهود، عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقال تعالى: ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(4).

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ

---

(1) سورة الأحزاب: [23].

(2) سورة البقرة: [177].

(3) سورة المؤمنون: [8]، والمعارج: [32].

(4) سورة البقرة: [100].

عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾[1].

وقال عز من قـائل ـ فى حق المنافقين ـ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[2].

الله أكـبر: اليـهود قـتلة الأنبـياء، ونـقضـة العهـود، أيعاهدون؟!! مـا وفوا مرة، بل ينـقضون عـهدهم في كل مرة، ولو وفـوا مرة لقال الله الامـرة، ولو وفى فريق منهم فإن بقيتهم لا يوفون، ويعارضون وينقضون، أَيُعَاهَدُون؟!! لماذا التجـارب المريرة، ذات النتائج الوخيـمة، مع أن الذى خلق، وعلم من خلق، أخـبرنا، وفي كـتابه الخالـد ذكرنا وحـذرنا، ثم بعد ذلك يعـاهدون!! والله لو تركت الحمـر نهيقها، والكلاب نباحهـا، والحيات لدغها، ما ترك اليهود نقضهم للعهود!! فتذكروا يا أولى الألباب.

---

(١) سورة الأنفال: [٥٦].	(٢) سورة التوبة: [٧٥ : ٧٧].

ثم هل يجوز للمسلـمين أن يتشبهوا بالكافـرين، وينقضوا عهـود رب العالمين، فـيجـروا على أنفسهم الـبلاء المبين، والشر المستكين، ونقمة أحكم الحاكمين.

﴿..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا..﴾ ولجلال خطر العهود وعظم قدرها عند الله تعـالى، ألزم الله المسلمين بالوفاء بهـا حتى مع المشـركين، فـقال تعـالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَـاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[1] كما قال سـبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[2] وكذلك لو عقد قبـل الإسلام، ما دامت لا تحل حرامًا ولا تحرم حلالاً، وقد ضمن الرسول ﷺ للأوفياء من المؤمنين - فضـلاً عن علو مكانتهم فى الدنيا - عـظيم المثوبة فى الدار الآخرة.

---

(١) سورة التوبة: [٤].

(٢) سورة التوبة: [٧].

فعن أنس وعائشة - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون عند شروطهم ما وافق الحق فى ذلك»[1].

وعن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اضمنوا لى ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة! اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا أئتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»[2].

﴿..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا..﴾ كل ما وصى الله به وشرعه، وكل ما أمر به ونهى عنه، فهو عهد وأمانة فى عنق المكلفين، فمن آمن برسول من رسله فقد عاهد الله - بالإيمان به - أن يتمثل أمره ونهيه، وما يلتزم الإنسان من عمل البر، بنذر أو يمين فهو عهد عاهد ربه عليه.

وكذلك من عاهد الإمام وبايعه على الطاعة فى المعروف، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع، والسلطان يعاهد الدول، والشعوب، فكل ذلك مما يجب

(١) رواه الحاكم وصححه. (٢) رواه أحمد والحاكم.

الوفاء به إذا لم يكن معصية، ولكن لا يعد من عهد الله شيء من ذلك إلا إذا عقد باسمه، أو بالحلف به، وكذا تنفيذ شرعه.

﴿ ..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ..﴾ ويلاحظ كما هى عامة فى الوفاء بجميع العهود، هى خاصة أيضًا، ففيها الإشارة إلى الوفاء بما سبقها من وصايا وعهود.

كما قال ابن كثير، نقلاً عن ابن جرير: يقول: وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله»[1].

وقال صاحب الظلال: يعقب ربنا - عز وجل - على هذا الأمر وعلى الوصايا التى قبله، مذكرًا بعهد الله ﴿ ..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ..﴾ ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربى، ومن عهد الله توفية الكيل والميزان

(١) تفسير الطبرى وابن كثير.

بالقسط، ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، ومن عهد الله حرمة النفس التى حرم الله إلا بالحق.. وهكذا.

وقبل ذلك كله من عهد الله: ألا يشركوا به شيئًا، فهذا هو العهد الأكبر المأخوذ على فطرة البشر بحكم خلقتها متصلة بمبدعها، شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها»[1].

﴿..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا..﴾ ومن نكت البلاغة هنا تقديم معمول الفعل ﴿.. أَوْفُوا..﴾ عليه، وهو يدل على الحصر، ولما لم يظهر الحصر لبعض المفسرين جعلوا التقديم لمجرد الاهتمام الذى هو الأصل فى كل ما يقدم على غيره فى هذه اللغة، وهذا عجز منهم ألجأهم إليه تفسيرهم للعهد، بهذه الوصايا أو بكل ما عهد الله إلي الناس، على أن تدخل هذه الوصايا فيه دخولاً أوليًا، والأول باطل، والثانى قاصر.

---

(١) فى ظلال القرآن.

أمـا بطلان الأول فـلأن الوفـاء بالـعـهـد من الوصـايا المقصـودة المعدودة وله مـعنى خاص، فلا يـصح أن يجعل عين ما قبله.

وأما قصور الثانى: فظاهر لما ذكرنا من سائر أنواع العهد بالشـواهد من القرآن، فـالعهـد إذا عام لكل مـا شرع الله للناس، وكل مـا التزمه الناس مما يرضـيه ويوافق شـرعه، ويقابله مالا يرضى الله من عهد كنذر الحرام، والحلف على فعله، ومعـاهدة الحربيين وغيرهم على ما فيـه ضرر للأمة وهضم لمصالحها، أو غير ذلك من المعاصى.

فحصر الله الأمر بالوفـاء فى الأول الذى يرضيه ليخرج منه هذا الأخير الذى يسخطه[1].

﴿..وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا..﴾ لأن من لم يوف بعهده، فيكون فيه خصلة من خصال المنافقين، كما قال النبى ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد

(١) تفسير المنار.

أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1].

وفي رواية «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[2].

وأما أهل الإيمان، فهم كما قال الرحمن: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[3].

ختام الآية ﴿..ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

والمعنى: ذلكم المتلوا عليكم فى هذه الآية من الاوامر والنواهى - البعيدة مدى الفائدة ومسافة المنفعة لمن قام بها - وصاكم الله بها فى كتابه رجاء أن تذكروا فى أنفسكم ما فيها من الصلاح لكم، فيحملكم ذلك على العمل بها، أو رجاء أن يذكره بعضكم لبعض فى التعليم والتواصى الذى أمر الله به بمثل قوله: ﴿..وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[4] ولكل من الذكر النفسى واللسانى وجه هنا، ولا مانع من الجمع بينهما.

(١، ٢) متفق عليه.
(٣) سورة الرعد: [٢٠].
(٤) سورة العصر: [٣].

﴿ ..لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم ﴿ .. تَذَكَّرُونَ﴾ مخففة من الذكر، والباقون بالتشديد من التذكر، وأصله تتذكرون، وليس معناهما واحدًا كما قيل، فإن الصيغ من المادة الواحدة تعطى معانى خاصة، ويتجوز فى بعضها ما لا يصح فى بعض، فالذكر يطلق فى الأصل على إخطار معنى الشىء أو خطوره فى الذهن، ويسمى ذكر القلب، وعلى النطق باللفظ الدال عليه ويسمى ذكر اللسان، ويستعمل مجازًا بمعنى الصيت والشرف، وفسر به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ..﴾[1].

ويطلق بمعنى العلم، وبه يسمى القرآن وغيره من الكتب الإلهية ذكرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ ..فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وأما التذكر فمعناه تكلف ذكر الشىء فى القلب، أو التدرج فيه بفعله المرة بعد المرة، ويطلق على الاتعاظ، ومنه

(١) سورة الزخرف: [٤٤].

(٢) سورة النحل: [٤٣]، والأنبياء: [٧].

قوله تعالى: ﴿..وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾[2] والشواهد عليه فى الذكر كثيرة.

ومثله الادكار ﴿..فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3] وهو افتعال من الذكر، والافتعال يقرب من التفعل، وحكمة القراءتين إفادة المعانى التى تدلان عليها من باب الإيجاز البليغ.

هذا.. وذكر الجمع بين المعنين «الذكر والتذكر» على القراءتين، أمر قائم ولا مانع له، ويكون المعنى على قراءة «تذكرون» وصاكم به رجاء أن يتكلف ذكر هذه الوصايا وما فيها من المصالح والمنافع من كان كثير النسيان والغفلة أو كثير الشواغل الدنيوية، وعلى القراءة الثانية «تَذَكَّرون» أى رجاء أن يتذكرها المرة بعد المرة من أراد الانتفاع بتلاوتها فى الصلاة وغيرها، وبغير ذلك، أو رجاء أن يتعظ بها من سمعها وقرأها أو ذكرها أو ذكر بها. وبعض هذه الوجوه

(١) سورة غافر: [١٣].
(٢) سورة الأعلى: [١٠].
(٣) سورة القمر: [١٥].

عام يطلب من كل مسلم، وبعضها خاص»[1].

وقال صاحب الظلال: ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف ﴿ ..ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ والذكر ضد الغفلة، والقلب الذاكر غير الغافل، وهو يذكر عهد الله كله، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها[2].

مقارنة بين ﴿ ..ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ و﴿ ..ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

قال الشيخ محمد عبده: وختمت الآية الأولى بقوله سبحانه ﴿ ..لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وهذه بقوله تعالى: ﴿ ..لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك، وقتل الأولاد، وقربان الزنا، وقتل النفس المحرمة بغير حق، غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها، فنهاهم سبحانه ـ لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها.

---

(1) تفسير المنار ٤ / ١٧١ بتصرف.   (2) في ظلال القرآن.

وأما حفظ أموال اليتامى عليهم، وإيفاء الكيل والعدل فى القول والوفاء بالعهد، فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يتذكرون إن عرض لهم نسيان، وقاله القطب الرازى أيضًا.

ثم قال: فإن قلت: إحسان الوالدين من قبيل الثانى أيضًا، فكيف ذكر من الأول؟ قلت: أعظم النعم على الإنسان نعمة الله تعالى، ويتلوه نعمة الوالدين لأنهما المؤثران فى الظاهر، ومنهما نعمة التربية والحفظ عن الهلاك فى وقت الصغر، فلما نهى عن الكفر بالله تعالى، نهى بعده عن الكفران فى نعمة الأبوين، تنبيها على أن القوم لما لم يرتكبوا الكفران فبطريق الأولى ألا يرتكبوا الكفر.

وقال الإمام الرازى: السبب فى ختم كل آية بما ختمت، أن التكاليف الخمسة المذكورة - فى الآية الأولى - ظاهرة جلية، فوجب تعقلها وتفهمها، والتكاليف الأربعة - المذكورة فى هذه الآية - أمور خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد والفكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال وهو التذكر.

وقال الألوسى: ويمكن أن يقال إن أكثر التكليفات الأول أدى بصيغة النهى وهو فى معنى المنع والحبس، والمرء حريص على ما منع، مناسب أن يعلل الإيصاء بذلك بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس، وهذا بخلاف التكليفات الأخر، فإن أكثرها قد أدى بصيغة الأمر وليس المنع فيه ظاهرًا كما فى النهى، فيكون تأكيدات الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر إذا نسى فليتدبر[1].

* * *

(١) راجع بتوسع: تفسير الطبرى، وابن كثير، والظلال، والمنار، والألوسى.



الوصية العاشرة

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ما أعظمها من وصية تُختم بها الوصايا، وما أشملها من معانى، وما أحوجنا إليها لتكون قارب النجاة ونحن تتقاذفنا أمواج الفتن المتلاطمة، والفرقة القاتلة، بل فى ظل هذه الطرق المتشعبة الضالة، والمناهج المتعددة المضلة، والأديان الباطلة، ما أحوجنا إلى تلك الوصية ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ .. ﴾ .

أى وعاشر ما أتلوه عليكم من وصايا ربكم، وما أدعوكم إليه هذا الدين القويم والشرع الحنيف، إنه المنهل العذب، السائغ المشرب، إنه هذه الوصايا العظيمة التى لا يكابر ذو مسحة من عقل فى حسنها وفضلها، وجمالها وعظمتها، إننى أدعوكم إلى هذا القرآن العظيم الذى هو

أقوم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ والذى هو سر حياتكم ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] إننى أدعوكم إلى ما يحييكم حياة حقيقية فاستجيبوا لذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾[2] كما أننى أدعوكم إلى صراطى - الذى هو صراط الله - ومنهاجى الذى أسلكه إلى مرضاة الله، والذى هو سر سعادتكم فى الدنيا والآخرة.

إنه صراط مستقيم، ومنهج قويم، ودين قيم، ظاهر الاستقامة، لا يضل سالكه، ولا يهتدى تاركه.. فاتبعوه وحده، ولا تتبعوا السبل الأخرى التى تخالفه وهى كثيرة فتتفرق بكم عن سبيله بحيث يذهب كل منكم فى سبيل ضلالة منها ينتهى بها إلى الهلكة، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس أمام تارك النور إلا الظلمات.

---

(١) سورة الشورى: [٥٢]. (٢) سورة الأنفال: [٢٤].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا..﴾ وقد أضيف الصراط هنا إلى الله تعالى، بمعنى الدين والمنهاج، إذ هو الذى شرعه، ودعا إليه، كما أضيف إلى غيره من الدعاة إليه والسالكين له من النبيين وأتباعهم، كما فى سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ..﴾[1].

كما أن إضافته هنا إلى النبى ﷺ قائمة ومحتملة، لأنه هو المخاطب للناس بهذه الوصية وفعلها مسند إليه تعالى بضمير الغيبة.

هذا.. وقد قرأ حمزة والكسائى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا..﴾ بكسر الهمزة فى «إن» والباقون بفتحها، فأما كسرها فعلى أن الكلام مستأنف فى بيان وصية هى أم الوصايا الجامعة لما قبلها، ولغيرها، وأما الفتح فعلى تقدير لام التعليل، فهو يقول: ولأجل أن هذا صراطى مستقيمًا لا عوج فيه، فعليكم أن تتبعوه إن كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج، وترجحون الهدى على الضلال، ومن هنا

(١) سورة الفاتحة: [٧،٦].

اتسع معنى هذه الوصية العظيمة، ليشمل الوصايا التى قبلها، وليدل على معالم الدين، كما دل على المعانى الكبيرة التى صرح بها، حيث جمعت هذه الوصية الجامعة فى طياتها بين أمرين وهما: الأمر بالحق، والنهى عن مقابله وهو الباطل.

ومن أجل المعانى الجامعة فى هذه الآية، والشمولية التى اشتملت عليها، تعددت آراء العلماء وتنوعت أقوال المفسرين فى معنى «الصراط» المذكور فى الآية، فمنهم من قال: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه، وذلك فى لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وهذا مقبول بالنسبة للمعنى اللغوى، ومعروف أيضًا، وأما من حيث المعنى الشرعى للصراط، فإننا إذا نحينا المعنى الوارد فى مراحل الحساب يوم القيامة وهو المرور

على الصراط الذى هو الطريق الذى مد على متن جهنم، وعلى جميع الخلق أن يمروا عليه للوصول إلى الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1] فإننا نستطيع بعد ذلك سرد أقوال المفسرين فى معنى الصراط، والجمع بينها، لأن حاصلها يرجع إلى شىء واحد، وهو المتابعة لله عز وجل، وللرسول ﷺ.

فمنهم من قال: هو الإسلام، وهو كذلك، كما قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: ذاك الإسلام، وقال ابن الحنفية: هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره.

وقد صح الحديث بهذا المعنى فيما أخرجه أحمد والترمذى والنسائى عن النواس بن سمعان رضى الله عنه مرفوعًا «ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور

(١) سورة مريم: ٧٢،٧١ .

مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا ولا تتفرقوا، وداع يدعو فى جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال له: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه ـ أى تدخله ـ، فالصراط الإسلام والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم».

وأقول: إن هذا الواعظ هو ما يعبر عنه الناس بالوجدان والضمير.

وكذلك.. الصراط المستقيم هو الحق، وهو كذلك، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم، بل يدل عليه، لإن الإسلام هو دين الله الحق، فهذا أشمل، حيث يشمل ما ذكر عنه من معانى، وهو كتاب الله، وهو كذلك، لما ورد عن النبى ﷺ فى فضائل القرآن «.. هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم».

وقد سماه فى الحديث السابق ذكره - بأنه هو الداعى على رأس الصراط، ولا تعارض ولا تضاد، حيث هو أهم معالم الصراط الذى هو الإسلام، وقد يعبر عن الجزء ويراد به الكل، أو يعبر عن الكل ويراد به الجزء، فيقال الصراط المستقيم هو دين الله، أو هو كتاب الله تعالى، وقالوا فى معنى الصراط أيضًا: هو النبى محمد ﷺ وصاحباه من بعده، وهو كذلك، فكل هذه الأقوال صحيحة ومتلازمة، فإن من اتبع النبى ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبى بكر وعمر، فقد اتبع القرآن، ومن اتبع القرآن والسنة فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع الحق، الذي لا حق سواه، فهو صراط الله المستقيم جملة وتفصيلاً. فكلها معانى يصدق بعضها بعضًا، ولله الحمد.

وكما جاء عن أبى وائل عن عبد الله قال: الصراط المستقيم الذى تركنا عليه رسول الله ﷺ، وما تركنا عليه رسول الله؟ تركنا على الكتاب، وكذلك على السنة، وكلاهما حق، فهما ركنا الدين وقوامه الذى هو الإسلام الحق.

ويرى صاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى ـ أن الصراط المستقيم هو هذه الوصايا فيقول: هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله، ومختومة بعهد الله، وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع هذه هى صراط الله المستقيم.. صراطه الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل، إنه صراط واحد، صراط الله، وسبيل واحدة تؤدى إلى الله، أن يفرد الناس الله سبحانه بالربوبية ويدينوا له وحده بالعبودية، وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية فى حياتهم الواقعية، هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله، وليس وراءه إلا السبل التى تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله».

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ.. ﴾.

ربكم ينادى عليكم أن اتبعوا صراطه المستقيم، حيث لا استقامة بعده، اتبعوا منهجه الحق، حيث لا حق وراءه، فهذا هو الإيمان الذى ليس بعده إلا الكفر، والهدى الذى

ليس بعـده إلا الضلال، هذا هو الحق الواضح، ومـا بعده تيه وضيـاع، هذا هو طريق البر والتقوى، ومـا بعده اتباع للشـرق أو الغـرب، ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ..﴾[1] فقد جـربنا الشرق الملحد فلم نفلح، وجربنـا الغرب الكافر فلم ننجح، فلـنجرب منهج الله، ولنسلك صراط الله، ولنطبق شرع الله، ولنوف بعهد الله، ولننفـذ شـرط الله ﴿..يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا..﴾[2] هذا هو البـر ﴿..وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[3] ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[4] ﴿..وَاتَّبِعُونِ هَذَا

---

(1) سورة البقرة: [١٧٧].

(2) سورة النور: [٥٥].

(3) سورة البقرة: [١٧٧].

(4) سورة آل عمران: [٥١].

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ..﴾ فهو سبيل عزكم، وسبيل نجاتكم، وسبيل نصركم، وهو سر سعادتكم، وسبب نجاحكم، وطريق فلاحكم، هو المخرج من كل مأزق، هو النجاة من كل فتنة، هو النور لكل ظلمة، هو الفرج لكل شدة، والحل لكل مشكلة، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[4].

---

(1) سورة الزخرف: [٦١].
(2) سورة الجاثية: [١٨].
(3) سورة الشورى: [١٥].
(4) سورة غافر: [٤٤].

﴿ ..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

أولاً: يلفت النظر أن الله تعالى قد أفرد الصراط المستقيم ووحد سبيله، وجمع السبل المخالفة له، وذلك لأن الحق واحد، وأما الباطل فمتعدد وكثير ﴿ ..فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ.. ﴾[1] وكما أن النور واحد، والظلمات متنوعة، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.. ﴾[2].

ثانيًا: معنى السبل: إنها تعنى عدة معانى، تخالف معنى الصراط المستقيم فهى تشمل كل صور الباطل، وألوان الضلال، وأحوال أهل الشمال، وسوء الأعمال، إنها نهى عن الأديان الباطلة التى تخالف الدين الحق وهو الإسلام، فالسبل أديان مخترعة، ومنسوخة زائلة، وسماوية محرفة، والسبل المنهى عنها هى البدع والخرافات، وهى الضلالات والشبهات، وهى طرق

(١) سورة يونس: [٣٢].

(٢) سورة البقرة: [٢٥٧].

الضلالة والعصبيات، وهى طرق الشياطين، ومخالفة منهج رب العالمين، وهى التفرق فى الدين، ومخالفة هدى خاتم النبيين، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

﴿ ..ولا تتبعوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكُمْ عن سبيله.. ﴾ نهى الله تعالى عن التفرق فى صراطه الحق وسبيله الواحد، فإن التفرق فى الدين الواحد هو جعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له، ويخطئون من خالفه، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال، أو الكفر والابتداع، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه، لأن كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها، لا فى الحقَ لذاته، والاستعانة على استبانته، وفهم نصوصه بغير تعصب ولا تشيع، ولكن فيما يؤيد قولها، ويؤكد مذهبها، ويدعم حجتها، ويبرهن على صحة معتقدها.

وقد علم أن صاحب المذهب بشر يصيب ويخطىء، فذلك أمر لا يختلف عليه اثنان، ولا تنتطح فيه عنزان، ولكن جميع المتعصبين للمذاهب يتبعون المذهب فى صوابه

وخطئه، وإمام المذهب فى حقه وباطله، وهم بذلك ليسوا متبعين لصراط الله الواحد الحق، وهذا ظاهر فيهم، فإنهم إذا دعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أعرضوا عنهما وآثروا قول صاحب المذهب عليهما، حتى وجدنا منهم من يزعم أن ما خالف مذهبهم من كتاب أو سنة فهو منسوخ أو مئول، فسبحان الله العظيم!!!

﴿ ..وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴾ حتى تتحقق وحدة الأمة، لأنه لا تستطيع الأمة أن ترفع رأسها، ولا أن تنتصر على عدوها، ولا أن تطبق شريعتها إلا بتحقيق وحدتها، فأعداء الإسلام يدركون أن الوحدة سبب القوة، وأن الفرقة سبب الضعف، وأن الوحدة سبب النصر، والفرقة سبب الهزيمة، من ثم اتخذ أعداء الإسلام سياسة ناجحة بالنسبة لهم، وهى سياسة «فرق تسد».

وأدركوا أن فرقة كلمة المسلمين يمثل مرضا خبيثًا، يفتك بهم فتكًا، ومن ثم عملوا على نشره بين الأمة فى حين أن أمرنا ربنا بالوحدة والاعتصام، والأخوة والوئام، ونهانا عن

الفرقة والانقسام، والشتات والانفصام فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا..﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ..﴾[2] وقال عز وجل: ﴿..وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ..﴾[3] وقال عز من قائل: ﴿..وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[4] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[5].

﴿..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ..﴾ لان ذلك يؤدى إلى ضعف الأمة وتمزقها، فتكون وجبة شهية للذئاب الجائعة المتوحشة، ولأن سلبيات ذلك أكثر من أن تحصى، فما تفرقت السبل بأمة إلا وقد سقطت خلافتها، وضاعت دولتها، وتشتت شملها، وبددت جهودها، وحرمت النصر والعز والمجد.

(1) سورة آل عمران: [١٠٣].
(2) سورة آل عمران: [١٠٥].
(3) سورة الأنفال: [٤٦].
(4) سورة الروم: [٣١،٣٢].
(5) سورة الأنعام: [١٥٩].

﴿ ..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ..﴾ حتى وإن وقع الخلاف، لأن الخلاف شيء والفرقة شيء آخر، ولأن الخلاف منه المحمود والمذموم، لكن الفرقة بين المسلمين مذمومة على كل حال، كما أن الخلاف لا يكون فى العقيدة والقطعيات، وإنما فى الفرعيات والظنيات، مع فقه أدب الخلاف، ومعرفة ما يجوز منه وما لا يجوز، ومن هنا نتعلم كيف تتسع صدورنا لمن يخالفنا فى فروع الدين دون أن نتفرق، ونتعلم أن اختلاف وجهات النظر لا يفسد للود قضية.

﴿ ..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ..﴾ لأن الذى يقود إلى السبل هو الشيطان الذى حرص على أن يكون له حزب غايته الوصول إلى النار ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[1] «ولأن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون بجزيرة العرب، ولكن فى التحريش بينهم»[2] أى أنه يسعى بينهم بالخصومات والشحناء، والبغضاء والفتن، والحقد والحسد.

---

(١) سورة فاطر: [٦].

(٢) أخرجه البخارى.

والذى يحرص على اتباع السبل هم أولياء الشيطان، وأعداء الرحمن، من اليهود والمنافقين ومن على شاكلتهم، «ولا تتبعوا السبل» باتباع الفرق الضالة، وما أكثرها فى زماننا، منذ أن طبخت فى مطابخ اليهود من العصر الأول الإسلامى، ثم فرخت وتشعبت حتى بلغت المئات أو الآلاف، وإن كانت أصولها لا تزيد عن الثنتين والسبعين، كما قال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى عن ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا واحدة، قالوا: ومن هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى»[1] والحديث قد ورد بروايات عدة.

﴿..وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ..﴾ بالتنازع على السياسة، والملك، أو بالعصبيات الجاهلية والتعصب الأعمى، أو بجهلكم بطبيعة هذا الدين الإسلامى العظيم، الذى أوقعكم فى مفاهيم خاطئة فرقت كلمتكم.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وأحمد وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٠٣،٢٠٤).

﴿ ..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴾ باتباعكم الهوى، أو بإعجاب كل ذى رأى برأيه، أو بأخذكم بشبهات المستشرقين وافتراءات المبطلين، وتأويلات الجاهلين، وتحريف الغالين.

﴿ ..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴾ بوقوعكم فى الإفراط والتفريط، أو بالغلو والتسيب، وبالبعد عن وسطية الدين.

﴿ ..وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. ﴾ فخالفوا الشيطان، وأطيعوا الرحمن، وتعرفوا على أعدائكم من أولياء الشيطان، واحذروا مخططاتهم لأنهم يحاربون دين الرحمن، ويريدون الكفر والخروج على الإيمان، لابد من معرفة سبيل الله القويم. وصراطه المستقيم، وتحقيق معانى الأخوة، والالتزام بأدب الخلاف، ولابد من علم نافع، وفهم شامل، مع التجرد والإخلاص، والعمل على إعادة الخلافة الراشدة، وكن على يقين أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأن طريق النصر بوحدة الصف، ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

فاتَّقُون ﴾[1] كما قال تعالى أيضًا: ﴿ ..أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فيه.. ﴾[2] لأن الأمة المتفرقة، مبعثرة القوى، مشتتة الجنود، موزعة الجهود، بأسها بينها شديد، لا تبدىء ولا تعيد، مجدها مفقود، وكلامها مردود، ورأيها غير سديد.

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

﴿ ..ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه .. ﴾ أمرٌ بالتمسك بالدين، وبالحق، وبالجماعة، وبالسنة، والهدى ونهيٌ عن الكفر، والباطل، والفرقة، والبدعة، والضلالة.

﴿ ..ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إنه ختام الآية، وختام الوصايا، أى ذلكم الأمر باتباع صراط الحق المستقيم، والنهى عن سبل الضلالات والأباطيل المعوجة، وهو جامع الوصايا النافعة البعيدة المرمى، الموصل إلى ما لا يحيط به الوصف من السعادة العظمى، وصاكم الله به

(١) سورة المؤمنون: [٥٢]. (٢) سورة الشورى: [١٣].

ليعدكم ويهيئكم لما يرجى لكل من اتبعه من اتقاء كل ما يشقيه ويرديه فى دنياه وآخرته.

ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ختم ذلك بالتقوى التى هى اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية، وقد جاء معنى التقوى هنا عاما لأنه جاء فى سياق اتباع صراط الله المستقيم الشامل لجميع أنواع الهداية، وصلى الله على سيدنا محمد إذ بين هذا المعنى، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه، خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا» ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وشماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[1].

(١) رواه أحمد والنسائى وابن ماجة، والحاكم وقال صحيح ولم يخرجاه.

﴿ . . لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إنها التقوى والتى أصلها التوقى والحذر من كل شر أو ضرر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ . . ﴾[1].

وترد التقوى فى النداءات العامة فى القرآن بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا . . ﴾[3].

وتجىء التقوى فى النداءات الخاصة بمعنى الطاعة والعبادة، كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ . . ﴾[4] قال ابن عباس رضى الله عنهما: «أى أطيعوا الله حق طاعته».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

(١) سورة التحريم: [٦].
(٢) سورة الحج: [١].
(٣) سورة لقمان: [٣٣].
(٤) سورة آل عمران: [١٠٢].

وترد التقوى بمعنى أشمل، فتكون بمعنى التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، كما قال تعالى: ﴿..وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ..﴾[١] وكما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٢].

ومن معانيها الجامعة قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٣].

﴿..لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذه التقوى التي امتلأ بها كتاب الله تعالى أمرًا، وإخبارًا، وصفة، حتى لم تكد تخلو

---

(١) سورة الطلاق: [٢،٣].

(٢) سورة النور: [٥٢].

(٣) سورة البقرة: [١٧٧].

سورة من سور القرآن، من الأمر بها، أو الإخبار عنها، أو ذكر صفات أصحابها، أو الحديث عنها تصريحًا أو تلميحًا، وكذلك نجد الاهتمام بالتقوى فى سنة النبى ﷺ، فلم تخل خطبة من خطبه ﷺ من الأمر بالتقوى، وخطبة الحاجة - كما تعلم - تشتمل على الأمر بالتقوى بذكر الآيات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: [١].
(٢) سورة الأحزاب: [٧٠،٧١].
(٣) سورة آل عمران: [١٠٢].

ثم مضمـون الخطبة بعد ذلك يدور فى فلك التـقوى إما جملة وإما تفصيلا، وهذا العرباض بن سارية رضى الله عنه يقول: «خطبنا رسـول الله ﷺ فوعظنا موعظة بليـغة ذرقت منها الـعيون، ووجلت منهـا القلوب، فقلـنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودعة، فماذا تعهد إلينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشـدين المهديين من بعـدى، تمسكوا بها وعـضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحـدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»[1].

ولئن كانت مواعظه العامـة ـ صلوات ربى وسلامه عليه ـ لا تخلو من الأمـر بالتقـوى والوصيـة بها، فـإن وصاياه الخاصة كانت كذلك لمـن سأله، أو هو ـ ﷺ ـ أمره، فهذا «أبو ذر» ـ رضى الله عنه ـ يقول: يا رسول الله، أوصنى، فيقول: «أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته. .»[2].

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد باسناد جيد.

وهذا «معاذ بن جبل» - رضى الله عنه - يقول: يا رسول الله أوصنى، فيقول: «أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله..»[١].

نعم إنها رأس الأمر كله، كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا كان لا حياة للإنسان بدون رأس. فكذلك لا معنى للدين بدون تقوى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ ..وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ.. ﴾[٢] فهى الوصية الجامعة النافعة، وكما قال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[٣].

هذا.. وللتقوى أهميتها فى الإسلام كما يعلم القاصى والدانى، والمتعلم والجاهل، فما التقوى؟ التقوى كما قال سيدنا على - رضى الله عنه -: هى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد.

(٢) سورة النساء: [١٣١].

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

وقال السلف: هى التزامك بشريعة الله تعالى، وقالوا: هى أن لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك، وهى بمنزلة الإحسان، بمعنى أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1].

وهى كمن سلك طريقًا به شوك، فشمر واجتهد، فتلك التقوى، إلى آخر ما قيل فى التقوى، وهى معانى عظيمة، لو فهمت صحيحة، بشموليتها وكمالها فالتقوى هى جوهر هذا الدين وخلاصته، وذروته وزبدته، وجوهره وحقيقته، ولا يتسع المجال لتفصيل القول عن التقوى فى هذه العجالة.

وأما المتقون فقد أكثر القرآن فى وصفهم، وجلى لنا سماتهم، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، والقرآن لا يغفل الحديث عنهم، فى بيان خصالهم وصفاتهم فالمتقون هم أصحاب الصراط المستقيم، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، مخالفين منهج المغضوب عليهم وكذا الضالين فهم الذين انتفعوا بالقرآن الكريم وهديه، ونوره ورشده،

---

(1) سورة النحل: [١٢٨].

يؤمنون بالغيب كله، ويقيمون الصلاة كاملة، ويؤتون الزكاة تامة، ويزيدون عليها بالانفاق من خالص مالهم، مع إيمانهم بما أنزل الله على رسوله من قرآن وسنة، والإيمان بالكتب السابقة التى أنزلها الله تعالى، مع اليقين بالآخرة والعمل لها، لذلك فهم على هدى من ربهم، وقد حكم بالفلاح لهم، كما أنهم أهل البر الذين عرفوا حقيقة الإيمان، فصدقوا فى إيمانهم بحسن عقيدتهم، وصحة عبادتهم وحسن معاملاتهم، وجميل أخلاقهم، وعملوا ليوم يرجعون فيه إلى الله.

كما آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله من غير تفرقة، مع حسن السمع والطاعة، واللجوء إلى الله تعالى، ثم هم موصوفون بالصبر والصدق، والقنوت والانفاق، والاستغفار بالأسحار، مع الوفاء بالعهد، يسارعون بالتوبة ويستغفرون، من غير إصرار وهم يعلمون، وهم الذين يذكرون ويتفكرون، وقد سمعوا منادى الله فلبوا مسرعين، أحبوا الله وأحبهم، فهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، وإذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم

مبصرون، وإذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذ تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون، هم التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنهم آمنوا وكانوا يتقون، آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم، فهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون، لما اتقوا وصبروا فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، مع الصبر والعفو والانفاق، مع نزع الغل من صدروهم التزموا بالوصايا، واتصفوا بأحسن الصفات، فنالوا من الله أعظم العطيات، وأجزل المثوبات، فوعدهم ربهم بتفريج الكروب والرزق الحلال، وصلاح الأعمال، وغفران الذنوب، والنصر على الأعداء، مع معيته - سبحانه - وكتب لهم الرحمة، وجعل لهم نورًا، وفرقانًا، وعلمًا، وهداية، هذا بعض ما لهم فى الدنيا، وأما فى الآخرة فكرامتهم النجاة من النار، ودخول دار الأبرار، فى أعلى درجات الجنان،

فى مقعد صدق عند الرحمن، ورفقة النبى العدنان عليه الصلاة والسلام، ذكرت هذا بالاختصار، من غير ذكر الآيات التى تدل على ذلك للبعد عن الاطناب والتكرار وفى الأخير نسأل الله الجنة، ونعوذ به من النار، وأن يجعلنا من عباده المتقين الأبرار، بفضله وكرمه فهو العزيز الغفار، الذى يغفر الذنوب والأوزار. آمين.

وكما قال سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه - فى وصف المتقين - لمن قال له صف لنا المتقين كأننا نراهم، فقال رضى الله عنه: «المتقون هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء، لولا الأجل الذى كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى ربهم، عظم الخالق فى أنفسهم، فصغر ما دونه فى أعينهم، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، وصبروا أيامًا قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة سيرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم

يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم يرتلون لأجزاء القرآن ترتيلا، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا، وتطلعت أنفسهم إليها شوقًا، وإذا مروا بآية فيها تخويف صغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم، فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف برى القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى، وربى أعلم بنفسى منى، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون، واجعلنى أفضل مما يظنون، واغفر مالا يعلمون، ومن علامة أحدهم أنك تجد له قوة فى دين، وحزمًا فى لين، وإيمانًا فى يقين، وحرصًا فى علم، وعملاً فى حلم، وخشوعًا فى عبادة، وتجملاً فى فاقة، وصبرا فى شدة، وطلبًا فى حلال، ونشاطًا فى هدى، وتحرجًا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمه

الشكر ويصبح وهمه الذكر، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، ما تراه قريبا أمله، قليلاً زلله، خاشعًا قلبه، قانعًا نفسه، مكظومًا غيظه، ميتة شهوته، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، يعفو عمن ظلمه، ويعطى من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبًا منكره، حاضرًا معروفه، فى الزلازل وقور، وفى المكاره صبور، وفى الرخاء شكور، ولا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، ولا يضيع ما استحفظ، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضر بالجار، ولا يشمت بالمصائب، إن بُغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له، نفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، وليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة» ا.هـ[1].

(١) من وصايا الرسول للشيخ طه عبد الله العفيفى جـ١ صـ٥٣٨، ٥٣٩ .

الخاتمة..

فى فضل الوصايا

إن المتأمل فى هذه الآيات الثلاث، وقد اشتملت على الوصايا العشر، يراها قد رسمت للإنسان علاقته بربه، علاقة ينال بها السعادة والثواب، ورسمت له علاقته بأسرته بحيث تقوم على المودة والمحبة، وسدت فى وجهه أبواب الشر التى تؤدى إلى انتهاك حرمات الأنفس والأموال والأعراض.

وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة اسم «الوصايا العشر» نظراً لتذييل آياتها الثلاث بقوله تعالى: ﴿ ..ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ.. ﴾.

وقد أشرت إلى هذا المعنى الذى ذكرت، فى فصل سبق، سميته «شمولية الوصايا» وكذلك تحدثت عن «اسم الوصايا» وذكرها فى الكتاب والسنة، والتوارة والإنجيل،

وذكرنا بعض الأحاديث بشأنها، ثم تناولت الوصايا واحدة تلو الأخرى بطريقة التفسير الموضوعى ومعه ألوان أخرى من التفسير، بصورة وعظية حتى ينتفع بها الخطباء، كما انتفعت بها أنا - ولله الحمد - حيث قمت بتفسيرها والوعظ بها فى أماكن شتى، فجعل الله - سبحانه - فيها النفع الكثير، وتم تسجيلها وتوزيعها، كما أنها الآن جعلت على الجهاز الحديث المسمى «بالكمبيوتر» اسطوانة، وكذا «الانترنت» وها أنذا فى الخاتمة أختم بالكلام عن فضل الوصايا، ومنزلتها السامية حيث كان لها بالغ الأثر وجميل المزايا فى دعوة النبى ﷺ.

فيما رواه البيهقى وأبو نعيم - كلاهما فى الدلائل - عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى «مِنى» وأنا معه وأبو بكر، وكان «أبو بكر» رجلاً نسابة، فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى، فسلم عليهم، وردوا السلام، وكان فى القوم «مفروق بن عمرو» و«هانىء» بن

قبيصة»، و«المثنى بن حارثة»، و«النعمان بن شريك»، وكان أقرب القوم إلـى «أبى بكر» «مفروق»، وكان «مـفروق» قد غلب عليـهم بيانًا ولسـانًا، فالتفـت إلى رسول الله ﷺ، فقال له: إلام تدعو - إلى أى شىء - يا أخـا قريش؟ فتقدم رسـول الله ﷺ فجلس، وقام «أبو بكر» يـظله بثوبه، فقال النبى ﷺ: «أدعـوكم إلى شهـادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شـريك له، وأنى رسول الله، وأن تؤونى وتنصـرونى، وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به، فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله وكـذبت رسوله، واستـغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد.

قـال له: وإلام تدعـــوا أيضًـا يـا أخـا قـريش؟ فـتـلا رسـول الله ﷺ: «قل تعالوا أتل مـا حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا. . إلى قوله: لعلكم تتقون».

فقـال له مفـروق: وإلام تدعو أيضًـا يا أخا قـريش؟ - فوالله مـا هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كـلامهم لعـرفناه - فتـلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُـرُ بِالْعَـدْلِ

وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(1).

فقـال له مفروق: دعـوت والله ـ يا قريشى ـ إلى مكارم الأخـلاق ومحـاسن الأعمـال، ولقـد أفك قوم كـذبوك، وظاهروا عليك.

وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبنى ما تكلمت له.

ثم قـال رسول الله ﷺ «إن لم تلبـثوا إلا يسـيرًا حـتى يمنحكم الله بلادهم وأمـوالهم ـ يعنى أرض فـارس وأنهـار كسرى ـ ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟».

فقال له النعمـان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش.

فتـلا رسول الله ﷺ: ﴿ . . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾(2) ثـم نهض رسول الله ﷺ قابضًا علـى يـد أبـى بكـر».

(1) النحل: [٩٠]. (2) الأحزاب: [٤٥، ٤٦].

ومما ورد فى فضل الوصايا، ودعوة النبى ﷺ، عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم..﴾ الآيات، حتى فرغ من ثلاث آيات.

ثم قال: ومن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلي الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه».

وقال الربيع ابن خيثم: أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد ﷺ بخاتم؟ قلت: نعم، فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..﴾ إلى آخر الآيات.

هذا وبالله التوفيق، «وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

اللهم اجعل هذا العمل صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا، وانفعنا به، وانفع به المسلمين، واهد به الضالين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

أبو عبد الله

عمر بن عبد العزيز قريشي

المراجـــــع

- القرآن الكريم.
- كتب السنة.
- كتب التفسير، ومنها:

١ ـ تفسير المنار.

٢ ـ تفسير في ظلال القرآن.

٣ ـ تفسير ابن كثير.

٤ ـ تفسير القرطبي.

٥ ـ تفسير الطبري.

٦ ـ تفسير الرازي.

٧ ـ تفسير الألوسي.

٨ ـ تفسير الزمخشري.

٩ ـ تفسير السيوطي.

١٠ ـ تفسير صفوة التفاسير.

١١ ـ تفسير المراغي.

١٢ ـ تفسير القاسمى.

١٣ ـ سلم الوصـــول إلى علم الأصـول للـحـافظ الحكمى.

١٤ ـ عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى.

١٥ ـ الوصايا العشر للشيخ عبد الحميد كشك.

١٦ ـ من وصـايا الـرسـول للشـيخ طـه عـبـد الله العفيفى.

١٧ ـ الدين والحياة ـ وزارة الأوقاف.

١٨ ـ بر الوالدين «الشيخ أحمد عيسى عاشور».

١٩ ـ رسالة تحديد النسل «أبو الفضل شبيب».

٢٠ ـ الكتاب المقدس «المدلس».

الفهـــــرست

تم بحمد الله وتوفيقه



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٥ / ٥٧٨١

إسلاميك جرافيك ٣٩٢٨٧٠٠ / ٠١٠١٥٥٥٩٢٧